

الشعيرة الثالثة
المجالس



المجالس

تتحدّر مجالس الإمام الحسين عليه السلام التي نشهدها اليوم عن تاريخ متسلسل حافل بالجهود المضنية، وترجع أصولاً إلى صدر الإسلام مروراً بعصور الأئمة الطاهرين عليهم السلام، حيث بذل الأئمة عليهم السلام أقصى الجهود في تدشين هذه المؤسسة الضخمة ووضع معالمها الراسخة الأسس، فهي نبوءة الإنطلاقة، إلا أنّها تطوّرت بعد الشّهادة، وازدهرت في عهد الأئمة عليهم السلام.

ومثّلت مجالس العترة النبويّة الإمتداد الأصيل لمجالس النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت المعاهد والمدارس التي أسّسها منذ بعثته في قلب جزيرة العرب، وبها استطاع أن يقلب الموازين، وأن يحوّل الظلمة الظّلماء إلى نور وضياء يملأ سماء المشرق، فمجالسه صلى الله عليه وآله وسلم أساسها العلم والنور والهدى، شأنها زرع الأمان في النفوس وتشبيد الارتباط بالحق، وتربية مرتاديه على طاعة الجليل وتقواه والعمل الصّالح وتعظيم شعائر الله سبحانه.

وبها تأهل الصّحابة لحمل أمانة العلم إلى الأجيال القادمة، ببسط مشاعل النّور والهدى وإتاحة فرص وأجواء التلقّي الروحي لاستقبال نور الله تعالى الذي يقذفه في قلب من أحب من أصحابه البررة رحمهم الله.

وتضافرت جهود أبنائه عليه السلام المضنية من بعده صلى الله عليه وآله ، وعملوا على إعداد وتأهيل نسبة عالية من عيون المجتمعات عبر مجالسهم التي أثروها بالعلم والهدى ، كما أنهم رفعوا أقدار نفر آخرين بتعليمهم وتفقيهم ، حتى تخرج الألوفا من مدرستهم العظمية ، مفتخرين بهذا الإنتساب المشرف ، وحملوا علومهم وهديبهم إلى الملايين عبر تتالي الأجيال ، بأمانة وصدق ورسالية .

ونقل التاريخ صورة المستوى الرفيع الذي وصلت إليه المجالس بعد أن كان العرب في تيه الجاهلية المظلم ، وبعد أن كانت مجالسهم ومنتدياتهم خاوية بالية ، فأهلت لتحتضن أمة متحضرة تنافس الحضارات وتذب عن فكرها وأصالتها ، بتبديد التصحر والجفوة والقسوة والجهل ، واستبدالها بالعلم والفكر الناضج والأفق الواسع .

وتقول الصديقة الطاهرة الزهراء عليها السلام في خصوص هذا التحول : " وكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، مَذْقَةَ الشَّارِبِ ، وَنَهْزَةَ الطَّامِعِ ، وَقَبْسَةَ الْعَجْلَانِ ، وَمَوْطَأَ الْأَقْدَامِ ، تَشْرِبُونَ الطَّرْقَ ، وَتَقْتَاتُونَ الْوَرْقَ ، أَذْلَّةَ خَاسِئِينَ ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ ، فَأَنْقِذْكُمْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله " (١) .

فتوالت مسيرة العترة عليها السلام تجدد رسوم تلك المجالس وتذب في سبيل رفع مستواها ، وتؤسس مادتها العلمية والروحية ، وتفعل من دورها في صياغة المجتمع وإصلاحه ، وتفزع على الأصول التي ابتدأها رسول الله صلى الله عليه وآله .. فقد رقى أمير المؤمنين عليه السلام القمة في أول مجلس يلتقي به برعيته بعد قبول الخلافة .. وخرج إلى

(١) راجع بحار الأنوار (٢٢٣/٢٩) .

المسجد متعمماً بعمامة رسول الله ﷺ ، لابساً بردته ، متنعللاً نعله ، متقلداً سيفه ، فصعد المنبر فجلس عليه متمكناً ، ثم شبك بين أصابعه ، فوضعها أسفل بطنه ، ثم قال : يا معاشر الناس ، سلوني قبل أن تفقدوني ، هذا سَفَطُ العلم ، هذا لُعب رسول الله ﷺ ، هذا ما زقني رسول الله زقاً زقاً ، سلوني ، فإن عندي علم الأولين والآخرين ، أما والله لو تُنيت لي وسادة فجلست عليها لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم ، حتى تنطق التوراة فتقول : صدق علي ما كذب ، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ ، وأفتيت أهل الإنجيل بإنجيلهم حتى ينطق الإنجيل فيقول صدق علي ما كذب ، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ ، وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم ، حتى ينطق القرآن فيقول صدق علي ما كذب ، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ .

وأنتم تتلون القرآن ليلاً ونهاراً ، فهل فيكم أحدٌ يعلم ما نزل فيه ، ولو لا آية في كتاب الله عز وجل لأخبرتكم بما كان وما يكون وبما هو كائن إلى يوم القيامة ، وهي هذه الآية : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ .

ثم قال عليه السلام : سلوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لو سألتموني عن أية آية ، في ليل أنزلت ، أو في نهار أنزلت ، مكّيتها ومدنيها ، سفريّها وحضرّيها ، ناسخها ومنسوخها ، ومحكمها ومتشابهها ، وتأويلها وتنزيلها ، لأخبرتكم^(١) .

وفي الخصال بالإسناد إلى محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : حدثني أبي عن جده عن آبائه عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام علم أصحابه في مجلس

(١) راجع بحار الأنوار (١١٥/١٠) والخبر طويل.

واحد أربعمئة باب مما يصلح للمؤمن في دينه ودينه^(١).
 وكان لأولاده الأئمة عليهم السلام حظّهم من العلم، وبلغ برهان فضلهم
 القاصي والداني، ومجالسهم عامرة بالعلم والفضيلة، وروي عن أبي حمزة
 الثمالي أنّه: لما كانت السنة التي حج فيها أبو جعفر محمد بن علي عليهما السلام أقبل
 الناس ينشالون عليه، فقال عكرمة: من هذا؟ عليه سيماء زهرة العلم،
 لأجربته، فلما مثل بين يديه ارتعدت فرائصه وأسقط في يد أبي جعفر، وقال: يا
 ابن رسول الله، لقد جلست مجالس كثيرة بين يدي ابن عباس وغيره فما
 أدركني ما أدركني أنفا.

فقال له أبو جعفر عليه السلام:

ويلك يا عبید أهل الشام، إنك بين يدي ﴿يُوتِ أذنَ اللّهُ أن تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ
 فِيهَا اسْمُهُ﴾^(٢).

ونمت مجالس علمهم وتفرّعت بحسب ظروفهم التي عاشوها، وبلغت
 ذروتها في عهد الإمام جعفر الصادق عليه السلام، بتأسيس أكبر المعاهد العلميّة في
 الإسلام، فقد روي عن الحسن بن علي الوشاء أنّه قال: إني أدركت في هذا
 المسجد تسعمائة شيخ، كل يقول حدثني جعفر بن محمد^(٣).

وفي بحار الأنوار مسنداً إلى علي بن إبراهيم عن أبيه، قال: استأذن عليّ أبي
 جعفر عليه السلام قوم من أهل النواحي فأذن لهم، فدخلوا فسألوه في مجلس واحد

(١) راجع بحار الأنوار (١/٥٢).

(٢) راجع بحار الأنوار (٤٦/٢٥٨).

(٣) رجال النجاشي ص (٣٩).

عن ثلاثين ألف مسألة فأجاب وله عشر سنين^(١).

وفي التاريخ روايات مشرقة ومشرّفة تحكى مجالس الإمام الرضا عليه السلام التي واجه فيها أرباب العلوم والأديان، وأخرى بين أصحابه، تنمّ عن علو كعب هذا البيت العظيم، وتؤكد على عظمة المسيرة النبوية التي تّمتمها الإمامة، فتربعت العترة على قمة سنام المجد الأثيل.

وروي عن أبي الصلت الهروي: ما رأيتُ أعلم من علي بن موسى الرضا عليه السلام، ولا رآه عالم إلا شهد له بمثل شهادتي، ولقد جمع المأمون في مجالس له ذوات عدد علماء الأديان وفقهاء الشريعة والمتكلمين فغلبهم عن آخرهم، حتى ما بقي أحد منهم إلا أقر له بالفضل، وأقر على نفسه بالقصور.

وكان موسى بن جعفر عليه السلام يقول لبنيه: هذا أخوكم علي بن موسى عالم آل محمد فاسألوه عن أديانكم، واحفظوا ما يقول لكم، فإني سمعت أبي جعفر بن محمد عليه السلام غير مرة يقول لي: إن عالم آل محمد لفي صلبك، وليتني أدركته، فإنه سمي أمير المؤمنين علي عليه السلام^(٢).

المجالس دواوين العرب

خلف العرب تراثاً ضخماً متميّزاً من الآداب والفوائد وأخبار الأيام والأساطير والشعر، ونقل المؤرّخون الشيء الكثير من الإرث الأدبي المختص بهم، وقد بلغنا هذا الإرث الضخم باعتباره نتاج مجالسهم ومنتدياتهم، ويجد

(١) راجع بحار الأنوار (٩٣/٥٠).

(٢) راجع بحار الأنوار (١٠٠/٤٩)، عن إعلام الوري، وقد اختصرناه.

الباحث والمتتبع في نصوص أخبارهم من الآداب والفنون ما يبشّر النفس ويريح الخاطر رغم صلف الجاهلية وضياع الجاهليين في تيهها الأسود من حيث الدين والأخلاق عموماً، وتتجلى في بعض نصوصهم الأدبية المنقولة وحالاتهم المرصودة بقايا الأخلاق الجريحة بخنجر الكفر والضلالة.

ولقد تفوق العرب في مجالسهم على سائر الأمم بالجملة، وكان حظهم الأوفى حتى إذا ما قسناهم مع باقي الحضارات، وهذه حقيقة تفرض نفسها على الرغم من ضياع الكثير من تراثهم بسبب قلة التدوين أو انعدامه أصلاً، فمجتمعهم بدائيّ أميّ، يعتمد في نشر عيون أدبه على النقل باللسان في الغالب وعلى منتديات الأدب ومجالسه والقصاصين والشعراء، فتبقى القصّة التاريخيّة أسيرة تنميق القصاصين وإضافاتهم ومبالغاتهم مما يُخرجها - بحسب العادة - عن الوضوح والصدق والدقة، وهذه نقطة ضعف كما ترى، إلا أنّها في نفس الوقت من أهم عوامل قوّة تلك المجالس، إذ أنّها حينئذ تكون المتنفّس الوحيد لتداول المواد واستعراض قدراتهم الأدبية.

ومن هذا المنطلق فإنّهم استغلّوا أهمّ الفرص في عقد نوادي الأدب، حتى أنّهم عيّنوا مواسم خاصّة يجتمع فيها الخطباء والأدباء في أيام الجاهلية، ومنها شهر المحرمّ الذي كانوا يسمونه "المؤتمر" لأنّهم يأترون ويجمعون فيه لتبادل الآراء والخطب وقد رصدت كتب التاريخ بعض تلك الملتقيات مطوّلة ومختصرة، وأعتقد أنّ عرب الجاهلية أحسن حالاً ممّا عليه حالهم اليوم من هذه الجهة !!

كما أنّهم استغلّوا وفرة الحجيج إلى مكة - أمّ القرى - فحوّلوا بعض دورها وأسواقها إلى ملتقى للشعراء والقصاصين بصورة شكّلت ظاهرة متداخلة مع

مظاهر التجارة العامرة فيها، خصوصاً في المواسم المعهودة عندهم. وكانوا يولون الأولوية الكبرى في منتدياتهم ومجالسهم العامة تلك لتداول الأحداث المستجدة المهمة عندهم، ويتذكرون أيام العرب ويقلبون ذكرياتهم السالفة، ويتذكرون الأنساب بشكل مفصل، ويرفعون من أقدار أقوام كما أنهم يضعون من أقدار أقوام آخرين، ويستعرضون نفائس الشعر في أبواب الغزل والفخر والهجاء، وكانت تشكل هذه العناوين مادة مجالس العرب الخاصة.

وطبيعي جداً أن يكون لهم مجالس خاصة مقتصرة على خواص الناس، من عليّة القوم مثلاً، أو مجالس صغيرة تجمع الشعراء خاصة، وقد نقل لنا التأريخ في أكثر من مورد صوراً لاجتماعات قريش، كما أنّ لكبار قريش مجلس خاص في محلّ خاص أطلقوا عليه (دار الندوة)، وهي دار قصي بن كلاب جدّ نبينا الكريم ﷺ واشتروا أن لا يحضرها إلاّ سادات مكة وكبارها، وشرطوا أن يبلغ عمر الحاضرين أربعين سنة وما فوق، وفيها يتداولون المستجدات وخصوصيات شؤونهم وأمور التجارة وربما الأدب، وتعدّ الاجتماعات المنقولة في دار الندوة من أهم ملامح القيادة والتنظيم في المجتمع المكّي، وفيها تُتخذ أهم الإجراءات وتُعالج المستجدات.

قال الجوهري: " الندوة والنادي مجلس القوم ومُتحدّثهم، ومنه سمّيت دار الندوة بمكة، التي بناها قصي، لأنهم كانوا يندون فيها، أي يجتمعون فيها للمشاورة".

وقد كانت مجمع كبار مكة، وفيها اتخذوا قراراتهم في كلّ ظروفهم العصبية والمصيرية والمهمة، وفي نصوص التأريخ صوراً من تلك الاجتماعات.

منها: ما رواه الواقدي في أحوال عبد المطلب عليه السلام، لما أنفذ سيف بن ذي يزن - وكان من ملوك اليمن - ابنه إلى مكة والياً من قبله، وتقدم إليه باستعمال العدل والإنصاف، ففعل ما أمره به أبوه، ثم إن عبد المطلب دعا برؤساء قريش، مثل عتبة بن ربيعة، ومثل الوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبي معيط، وأمّية بن خلف، ورؤساء بني هاشم، فاجتمعوا في دار الندوة، فلما قعدوا وأخذوا مراتبهم، فتكلم عبد المطلب وقال: اعلموا أنني قد دبّرت تدبيراً. فقال المشايخ: وما دبّرت يا رئيس قريش وكبير بني هاشم؟ فقال: يا قوم، إنكم تحتاجون أن تخرجوا معي نحو سيف بن ذي يزن لتنهتته في ولايته، وهلاك عدوّه، ليكون أرفق بنا وأميل إلينا. فقالوا له بأجمعهم: نعم ما رأيت، ونعم ما دبّرت. قال: فخرج عبد المطلب ومعه سبعة وعشرون رجلاً على نوق جياذ نحو اليمن^(١).

ولم يخفَ بريقُ دار الندوة حتّى بعد الإسلام، وكانت أهم اجتماعات المشركين وأعداء الإسلام فيها أيضاً، ويروى أنّ قريشاً اجتمعت فيها بعد بزوغ الإسلام وإتساع حركة النبي ﷺ وزيادة أتباعه، فقال لهم الوليد: إنكم ذووا أحساب وذووا أحلام، وإن العرب يأتونكم فينطلقون من عندكم على أمر مختلف، فأجمعوا أمركم على شيء واحد، ما تقولون في هذا الرجل؟

قالوا: نقول إنه شاعر، فعبس عندها، وقال: قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر. فقالوا: نقول إنه كاهن.

قال: إذا يأتونه فلا يجدونه يحدث بما يحدث به الكهنة. قالوا: نقول إنه مجنون.

(١) راجع بحار الأنوار (١٥/١٤٦).

قال: إذا يأتونه فلا يجدونه مجنوناً. قالوا: نقول إنه ساحر.

قال: وما الساحر؟ فقالوا: بشرٌ يُحبِّون بين المتباغضين، ويُبغضون بين المتحابين.. قال: فهو ساحر، فخرجوا فكان لا يلقى أحد منهم النبي ﷺ إلا قال: يا ساحر يا ساحر، واشتد عليه ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾^(١).

وروى المؤرخون أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة، وكتبوا صحيفة بينهم أن لا يؤاكلوا بني هاشم ولا يكلمونهم، ولا يباعدونهم، ولا يزوجهونهم، ولا يتزوجوا إليهم، ولا يحضروا معهم حتى يدفعا إليهم محمداً فيقتلوه، وأنهم يد واحدة على محمد، يقتلونه غيلة أو صراحاً، فلما بلغ ذلك أبا طالب جمع بني هاشم ودخلوا الشعب، وكانوا أربعين رجلاً، فحلف لهم أبو طالب بالكعبة والحرم والركن والمقام إن شاكت محمداً شوكة لأثبن عليكم^(٢).

ولما ضاق بهم أمر النبي ﷺ وفاقت قوته على نفذهم اجتمعوا في دار الندوة وكان إذ ذاك لا يدخل دار الندوة إلا من أتى عليه أربعون سنة، فدخلوا - أربعين رجلاً من مشايخ قريش - وجاء إبليس في صورة شيخ كبير، فقال له البواب: من أنت؟

قال: أنا شيخ من أهل نجد، لا يعدمكم مني رأي صائب، إني حيث بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل فجئت لأشير عليكم. فدخل إبليس، فلما أخذوا مجلسهم، تداولوا أمر النبي ﷺ حتى خلصوا إلى فكرة قتله، والقصة معروفة^(٣).

(١) راجع بحار الأنوار (١٨/١٦٧).

(٢) راجع بحار الأنوار (١٩/١).

(٣) راجع بحار الأنوار (١٩/٤٧).

فدار الندوة صورة لمجالس الرأي الخاصة التي استخدمت فترة طويلة ضدّ الإسلام، وفي عيون أخبار التاريخ صور عن مجالسهم العامة المليئة بالقصود الأدبية على تشعب أقسامها وأشكالها.

وكيف كان.. فإنّ مجالس العرب هي دواوينهم الأدبية وملتقياتهم الفكرية وموسوعاتهم العلمية وقنواتهم الإعلامية ومدارسهم العامة والخاصة، وفي كلّ ذلك الغث الكثير والسمين القليل، وتمثّل تلك المجالس نتاج حياتهم وروح عطاءاتهم، ومن هذا المنطلق فإنّ الإسلام لم يغفل هذه الظاهرة العريقة التي تمكّن من تسخيرها فيما بعد بصورة حضارية رائدة، فحوّلها بتعليماته إلى مؤسسة مقننة، وصاغ أسسها بتوجيهاته وهديه، وأصلح مفاصلها بتدرّج ومنهجية، وهدّبها بشكل كامل وملفت للنظر، وفعل من دورها في بناء شخصية الفرد العلمية والعقائدية.

الإسلام والمجالس

لقد بُعث النبي الكريم ﷺ في أوج نشاط الجاهلية واستيلائها على الفكر والذوق والسلوك، وتسَلّت الأفكار الإسلامية الكريمة إلى ذلك المجتمع بخطوات مدروسة ومتتالية ومتأتية، وتنقل المصادر أنّه ﷺ كان مُعرضاً عن حياتهم الجاهلية إعرافاً كاملاً، إلاّ أنّه كان الغائب الشاهد، فقد كان يصل الرّحم، ويحضر بعض منتدياتهم النزيهة، ويشارك في بعض مجالسهم وأحلافهم التي أُبرمت لنصرة الحق، كحلف الفضول الذي شكّله بعض أعيان مكة في مقابل حلف لعقة الدّم في قصة مشهورة، وكانت هذه المشاركة منه ﷺ بمثابة الخطوة

الأولى على طريق تهذيب الميول وتطهير النفوس قبل بعثته الشريفة، وقد أضاف ﷺ بذلك قيمة أخلاقية عالية إلى تلك المجالس بالسموِّ بأغراضها.

ولا شك في كون المجالس والمنتديات ظاهرة إجتماعية جديرة بالاهتمام، وطبيعتها كاشفة عن فساد أو صحّة الذوق العام، وهي تعكس وعي مرتاديها بشكل دقيق، ولا بدّ من أن يُعمل الإسلام هديه وتعاليمه في تهذيبها من برائن الجاهليّة بالسموِّ بأغراضها، بصورة تؤدّي إلى الدّين والعلم والهدى.

ثمّ عمل الإسلام - منذ صدر الإسلام - على دعم المواد المفيدة في المجالس العامّة والخاصّة، خلافاً لما تعودّه العرب في مجالس الجاهلية، وراح النبي ﷺ يجابه المادّة الخالية عن الفوائد العمليّة، التي لا تعود على النّاس إلّا بتأجيج العصبيّات والإحن في النفوس، ويُجابه الخرافات والأساطير والموروثات الفاسدة، ويؤسّس لمادة بديلة تنهض بأمتّه فتتمكّن من منافسة أعظم الحضارات.

ففي أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي الحسن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فإذا جماعة قد أطافوا برجل، فقال: ما هذا؟ ف قيل: علامة!! قال: وما العلامة؟ قالوا: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية وبالأشعار والعربية. فقال النبي ﷺ: ذاك علم لا يضر من جهله، ولا ينفع من علمه^(١).

ولقد ارتفعت تعاليم الإسلام لترقى بالأمة فوق مستويات سائر الأمم في

(١) راجع بحار الأنوار (٢١١/١).

طريق تطوير مجالسهم ومنتدياتهم، واهتم الدين بالأخلاق كأساس أول في تعاليمه، وعرض القرآن الكريم صوراً من المجالس المنحطة ليتمّ معاكستها بالسلوك، واصفاً إياها بالمنكر، تشنيعاً لها وتأسيساً لخلافها في النفوس، ودم بتعاليمه بعض منتدياتهم وشرح أحوال أقوام ترسيخاً للآداب والأخلاق السامية.

وقال تعالى في وصف مجالس قوم لوط: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ وقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم من غير حشمة ولا حياء، وقيل: إنهم كانوا يأتون الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً، وقيل: أن مجالسهم كانت تشتمل على أنواع المناكير، مثل الشتم والسخف والصفع والقمار وضرب المخراق وخذف الأحجار على من مر بهم، وضرب المعازف والمزامير وكشف العورات واللواط^(١).

ولقد عني القرآن بأدق التفاصيل في مسألة الآداب والأخلاق في المجالس ليؤكد قدسيّتها، ووضع لبنات الأساس في طريق تأسيس المجلس القدوة والمثال الذي يُحتذى، ورسّخ قدسية مجلس النبي ﷺ ونهى عن الإساءة في محضره الكريم، إذ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وبهذا فإنه يؤدّب المتشرّفين بمجالسته على تأخير أقوالهم وأفعالهم عن قوله وفعله. وقال ابن عباس: نهوا أن يتكلموا قبل كلامه ﷺ، وكأنّ الآية تقول لهم: إذا كنتم جالسين في مجلس رسول الله ﷺ فستل عن مسألة فلا تسبقوه بالجواب حتى يجيب ﷺ أولاً.

(١) راجع بحار الأنوار (١/٢١٩).

ونهاهم عن رفع الصوت في محضره الشريف ، فقال تعالى : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ لأن في ذلك استخفاف به ﷺ وهو عين الكفر وفيه سوء الأدب الذي ينافي التعظيم المأمور به ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ يأمرهم بغض الأصوات عند مخاطبتهم إياه في مجلسه ، إذ يجب تعظيمه وتوقيره من كل وجه.. وتتوالى آيات القرآن الكريم في هذا الصدد^(١).

وجاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا ﴾ أن أصحابه كانوا يتنافسون على حضور مجلسه ﷺ ، فإذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنّوا بمجالسهم عنده ﷺ ، فأمرهم تعالى أن يفسح بعضهم لبعض.

وقيل : أن مجلس رسول الله ﷺ كان في الصُّفَّة ، وفي المكان ضيق وذلك يوم الجمعة ، وكان ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء أناس من أهل بدر ، وقد سُبِقوا في المجلس ، فقاموا حيال النبي ﷺ فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فردّ عليهم ﷺ ثم سلّموا على القوم بعد ذلك فردّوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينظرون إلى القوم فلم يفسحوا لهم.. فشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : قم يا فلان ، قم يا فلان ، بقدر نفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرف الكراهية في وجوههم ، وقال المنافقون للمسلمين : أستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس ، فوالله ما عدل على هؤلاء ، إن قوماً أخذوا مجالسهم ، وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من

(١) راجع بحار الأنوار (٢٢/١٧).

أبطأ عنه مقامهم ، فنزلت الآية^(١) .

لقد أرست تعاليم الإسلام جانبي الآداب والذوق العالي في المجالس بصورة ظاهرة ، كقاعدة أساس لتلقي المادتين الدينيّة والعلمية ، والترقيّ بجملة مرتادي تلك المجالس النبوية بتوجيه محتوى منتدياتهم .

وقد ورد عنهم عليه السلام : لا تكونوا كجفأة الجاهلية ، لا في الدين تتفقهون ، ولا عن الله تعقلون ، كقيض بيض في أداخ ، يكون كسرهما وزراً ، ويخرج حضانها شراً^(٢) .

الإسلام وتوجيه المجالس

أشرفت تعاليم الإسلام على أدقّ التفاصيل في تهذيب المجالس ولم تهمل جانباً من جوانبها ، إلى درجة أن التعاليم الدينية وجّهت المسلمين حتّى في ضوابط اختيار المجلس ! في سبيل تقديس مادة المجالس الدينيّة والعلميّة .

ففي غوالي اللثالي أن النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قال : قال الحواريون لعيسى عليه السلام : يا روح الله من نجالس ؟ قال : من يذكركم الله رؤيته ، ويزيد في علمكم منطقته ، ويرغبكم في الآخرة عمله^(٣) .

وفيه عن بعض الصادقين عليه السلام : الجلساء ثلاثة ، جلس تستفيد منه فالزمه ، وجليس تفيد فأكرمه ، وجليس لا تفيد ولا تستفيد منه فاهرب عنه^(٤) .

(١) راجع بحار الأنوار (٢٥/١٧) .

(٢) راجع بحار الأنوار (٢١١/١) .

(٣) راجع بحار الأنوار (٢٠٣/١) .

(٤) راجع بحار الأنوار (٢٠٣/١) .

ثم رَغِبَتِ التعاليم إلى مجالسة الفقهاء وأهل الدين ، فهم الأقدر على التوجيه والإفادة ، وبالتالي فإنَّ التلقِّي عنهم من أفضل العبادات.. ورُوِيَ في أمالي الشيخ الطوسي بالإسناد إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنَّ رسول الله ﷺ قال : المتقون سادة ، والفقهاء قادة ، والجلوس إليهم عبادة^(١).

ورُوِيَ في عدة الداعي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام قال : جلوس ساعة عند العلماء أحب إلى الله من عبادة ألف سنة ، والنظر إلى العالم أحب إلى الله من اعتكاف سنة في البيت الحرام ، وزيارة العلماء أحب إلى الله تعالى من سبعين طوافاً حول البيت ، وأفضل من سبعين حجة وعمرة مبرورة مقبولة ، ورفع الله له سبعين درجة ، وأنزل الله عليه الرحمة ، وشهدت له الملائكة أن الجنة وجبت له^(٢).

ورُوِيَ في روضة الواعظين أن لقماناً قال لابنه : يا بني ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله عز وجل يجيي القلوب بنور الحكمة كما يجيي الأرض بوابل السماء^(٣).

وفيه عن بعض الصحابة أنه جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إذا حضرت جنازة ومجلس عالم أيهما أحب إليك أن أشهد ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن كان للجنازة من يتبعها ويدفنها فإن حضور مجلس عالم أفضل من حضور ألف جنازة ، ومن عيادة ألف مريض ، ومن قيام ألف ليلة ، ومن صيام ألف يوم ، ومن ألف درهم يتصدق بها على المساكين ،

(١) راجع بحار الأنوار (١/٢٠١).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٤).

(٣) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٤).

ومن ألف حجة سوى الفريضة، ومن ألف غزوة سوى الواجب تغزوها في سبيل الله بمالك ونفسك، وأين تقع هذه المشاهد من مشهد عالم، أما علمت أن الله يطاع بالعلم، ويعبد بالعلم، وخير الدنيا والآخرة مع العلم، وشر الدنيا والآخرة مع الجهل^(١).

وروي في ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عن آباءه عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: مجالسة أهل الدين شرف الدنيا والآخرة^(٢).

كما أنهم عليه السلام قد نهوا عن الحضور في مجالس أعدائهم التي ينتقصون فيها، وحدّروا من الكون في مواطن النعمة والعذاب الإلهي المعجل، وتندرج المرويّات في هذا الباب في قائمة مكافحة الإعلام المضاد مقابل السلطة التي حكمت البلاد في تلك الأزمنة ووجهت الإعلام في الإتجاه المناويء لأهل البيت عليه السلام.

ففي الكافي بالإسناد إلى الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ثلاثة مجالس يمقتها الله ويرسل نغمته على أهلها فلا تقاعدوهم ولا تجالسوهم، مجلساً فيه من يصف لسانه كذباً في فتياه، ومجلساً ذكر أعدائنا فيه جديد وذكرنا فيه رث، ومجلساً فيه من يصدّ عنا وأنت تعلم.

قال: ثم تلا أبو عبد الله عليه السلام ثلاث آيات من كتاب الله كأنما كن في فيه أو قال كفه ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ. وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ. وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتُرُوا

(١) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٤).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/١٩٩).

عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ^(١).

وفيه عن عبد الأعلى قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعدنّ في مجلس يُعاب فيه إمام أو ينتقص فيه مؤمن^(٢).

مجالس الذكر

يحتاج الإنسان المؤمن إلى بناء ذاته دينياً وعلمياً وفكرياً، إذ لا خير يرتجى من الجاهل بالدين والحلال والحرام، ومن هذا المنطلق فإنّ الأخبار الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام حثت على البناء الذاتي بما لا مزيد عليه، وتوالت تعاليمهم في هذا الصدد حتى كانت قمة العصور الذهبية للعلم والتفقه في زمن الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

فقد روي عنه عليه السلام في المحاسن عن إسحاق بن عمار أنّه سمعه يقول: ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا في الحلال والحرام^(٣).

وكما أن الإنسان المؤمن يحتاج إلى التفقه والتعلم فإنّه يحتاج في نفس الوقت إلى تذاكر الفقه والعلم، وتداوله وتحريك موادّه ليحصّنه من النسيان، ويحيي قلبه بالتذكّر، ومن هذا المنطلق حثّ النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام على إقامة مجالس الذكر، فإنّ في تكرار المادة المعلومة ترسيخ لها في النفس والذاكرة، وهي مجالس

(١) راجع بحار الأنوار (٢١٥/٧١).

(٢) راجع بحار الأنوار (٢١٤/٧١).

(٣) راجع المحاسن (٢٢٩/١)، وعنه بحار الأنوار (٢١٤/١).

تؤكد أهمية الفقه والعلم، ويرتادها العلماء والمتعلمون على حدّ سواء، ومن هنا فإنّها تكتسب أهميّة قصوى، وقد توالى الأخبار في الحثّ على إحياؤها.

وروي أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل يقول: تذاكر العلم بين عبادي مما تحيي عليه القلوب الميتة إذا انتهوا فيه إلى أمري^(١).

ووجهت التعاليم الدينية بعقريّة ظاهرة إلى تحويل كلّ الملتقيات الاجتماعية إلى مجالس ذكر للعلم، بل وحتّى الزيارات الاعتيادية التي لا يستغني عنها الناس بطبعهم، ليترقوا بعلومهم ونفوسهم.. فرُوي في كنف الكراجكي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: تزاوروا وتذاكروا الحديث، إن لا تفعلوا يدرس^(٢).

وروي في جامع الأخبار عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا ذر، اجلس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله من قيام ألف ليلة يصلى في كل ليلة ألف ركعة، والجلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله من ألف غزوة وقراءة القرآن كله. قال: يا رسول الله، مذاكرة العلم خير من قراءة القرآن كله !!

فقال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر.. اجلس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله من قراءة القرآن كله إثنا عشر ألف مرة. عليكم بمذاكرة العلم، فإن بالعلم تعرفون الحلال من الحرام. يا أبا ذر، اجلس ساعة عند مذاكرة العلم خير لك من عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها. والنظر إلى وجه العالم خير لك من عتق ألف

(١) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٣).

(٢) راجع بحار الأنوار (٢/١٥١).

رقبة^(١).

وروي في غوالي اللثالي بطريق صحيح عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إن الله عز وجل يقول لملائكته عند انصراف أهل مجالس الذكر والعلم إلى منازلهم: أكتبوا ثواب ما شاهدتموه من أعمالهم، فيكتبون لكل واحد ثواب عمله ويتركون بعض من حضر معهم فلا يكتبونه، فيقول الله عز وجل: ما لكم لم تكتبوا فلاناً؟ أليس كان معهم وقد شهدهم؟! فيقولون: يا رب، إنه لم يشرك معهم بحرف، ولا تكلم معهم بكلمة، فيقول الجليل جل جلاله: أليس كان جلسهم؟ فيقولون: بلى يا رب، فيقول: أكتبوه معهم، إنهم قوم لا يشقى بهم جلسهم، فيكتبونه معهم، فيقول تعالى: أكتبوا له ثواباً مثل ثواب أحدهم^(٢).

وروي في علل الشرائع عن يونس رفعه، أن لقماناً قال لابنه: يا بُني اختر المجالس على عينك، فإن رأيت قوماً يذكرون الله عز وجل فاجلس معهم، فإنك إن تكُ عالماً ينفعك علمك ويزيدوك علماً، وإن كنت جاهلاً علّموك، ولعل الله أن يظلمهم برحمة فتعمك معهم، وإذا رأيت قوماً لا يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإنك إن تكُ عالماً لا ينفعك علمك، وإن تكُ جاهلاً يزيدوك جهلاً، ولعل الله أن يظلمهم بعقوبة فتعمك معهم^(٣).

ويعني الحكيم بقوله: على عينك.. أي على بصيرة منك وفحص، فإن على قد تجيء بمعنى الباء، واحتمل المرحوم المجلسي رحمته أن المقصود: رجحها على عينك،

(١) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٤).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٣).

(٣) راجع بحار الأنوار (١/٢٠١).

ثم يشرع في بيان المجلس الذي ينبغي أن يختار على العين، وفي هذا الخبر تتجلى أهمية مجالس الذكر عموماً، للعالم والجاهل كما ترى، وفيه بيان وجه الفائدة لهما. وتنعطف الروايات والأخبار عنهم عليهم السلام لتعبّر عن مجالس الذكر بالخلق، مما يعكس الاستعداد والتهيئة لها والإهتمام بها، كأشبه ما تكون بالمدارس الخاصة، وينطوي هذا التعبير على بيان جملة من الآداب الخاصة بتلك المجالس فتأمل.

فرُوي في منية المرید أنّ رسول الله ﷺ قال: إذا مررتم في رياض الجنة فارتعوا، قالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟

قال: حلق الذكر، فإن لله سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم^(١).

وقريب من ذلك ما روي في معاني الأخبار بإسناده إلى محمد بن الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام عن أبيه عن أبيه عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام أنّ رسول الله ﷺ قال: بادروا إلى رياض الجنة.. فقالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر^(٢).

وحلق الذكر هي المجالس التي يتذاكر فيها المؤمنون ما يقربهم إلى الله تعالى، سواء كان تعلّم الحلال والحرام، من قبيل كيف يشتري المسلم ويبيع ويصلي ويصوم وينكح ويطلق وأشباه ذلك على قانون الشرع.. أو تلك التي يتذكرون فيها علوم أهل البيت عليهم السلام وفضائلهم ومناقبتهم ومثالب أعدائهم،

(١) راجع بحار الأنوار (٢٠٤/١).

(٢) راجع بحار الأنوار (٢٠٢/١).

ويحيون أمرهم ﷺ ويتعرّضون إلى ذكر مصائبهم كما سيأتي.. أو مجالس الوعظ التي يتذكرون فيها وعد الله سبحانه ووعيده، ويتشوقون فيها إلى الجنة ويخشون عذاب النار.. أو مجالس العلم التي لا يمكن أن تكون إلا مقربة من الحقّ تعالى بدراسة نعمه وآلائه ومظاهر عظمته.

أهل البيت والمجالس

يتبادل أهل البيت ﷺ الأدوار في التبليغ، وتتوزع مهام التوجيه فيما بينهم كما يتبادلون المكارم والفضائل، ويقتسمون مهام البناء الإنساني اقتساماً مُلفتاً، فقد هياً النبي ﷺ أرضية المجالس الإسلامية من جانب، وأشعل فتيل الحزن على أرزاء العترة ﷺ من جانب آخر، ثم نهجت العترة على هذا المنوال في الجانبين، وأثرى أهل البيت ﷺ جانب المأساة في مادة المجالس، ووظفوا مجالس الذكر لصالح قضيتهم الكبرى، وأضافوا مادة الحزن إلى باقي أهداف تلك المجالس فزادوا في رونقها وأمدوها بوقود البقاء.

وروي في الغوالي عن الإمام الصادق ﷺ أنه قال: تلاقوا وتحادثوا العلم، فإن بالحديث تجلى القلوب الرائدة، وبالحديث إحياء أمرنا، فرحم الله من أحيى أمرنا^(١).

وفيه أنّ النبي ﷺ قال: تذكروا وتلاقوا وتحادثوا، فإن الحديث جلاء، إن القلوب لترين كما يرين السيف، وجلأؤها الحديث^(٢).

(١) راجع بحار الأنوار (٢٠٢/١).

(٢) راجع بحار الأنوار (٢٠٣/١).

وفي أمالي الشيخ الطوسي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال لخيشمة: يا خيشمة، إقرأ موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله العظيم عز وجل، وأن يشهد أحيائهم جنائز موتاهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم، فإن لقياهم حياة أمرنا، ثم رفع يده عليه السلام فقال: رحم الله امرأً أحيى أمرنا^(١).

وفي أمالي الصدوق عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: من جلس مجلساً يُحيى فيه أمرنا لم يمِت قلبه يوم تموت القلوب^(٢).

وفي عيون الأخبار عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: من تذكر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يحيا فيه أمرنا لم يمِت قلبه يوم تموت القلوب^(٣).

وفي أمالي الشيخ الطوسي عن معتب مولى أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول لداود بن سرحان: يا داود أبلغ موالي عني السلام، وأني أقول رحم الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكر أمرنا، فإن ثالثهما ملك يستغفر لهما، وما اجتمع اثنان على ذكرنا إلا باهى الله تعالى بهما الملائكة، فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر، فإن في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياءنا، وخير الناس من بعدنا من ذاكراً بأمرنا ودعا إلى ذكرنا^(٤).

وفي بشارة المصطفى بالإسناد إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام

(١) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٠).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/١٩٩).

(٣) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٠).

(٤) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٠).

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: زينوا مجالسكم بذكر علي بن أبي طالب^(١).

وفي المحاسن بالإسناد إلى أبي عبد الله عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ذكرنا أهل البيت شفاء من الوباء والأسقام ووسواس الريب، وحبنا رضى الرب تبارك وتعالى^(٢).

وكانت هذه الروايات والأخبار - التي سرعان ما حملها الرواة إلى أقصى النقاط التي يقطنها الشيعة - الضوء الأخضر لرفع شعارهم وتجديد ذكرهم، عبر إحياء المحافل والمجالس، حتى صارت سمة تميّزهم عن غيرهم من المسلمين، وبذلك يميّزهم الطاهرين عليهم السلام.

ورحب أئمة أهل البيت عليهم السلام بحركة الشيعة في هذا الاتجاه، وأبدوا ارتياحهم تجاه تلك المجالس التي أدخلت السرور على قلوبهم في عصور الشدة، وتحدى الشيعة الصعاب بحبهم لهم عليهم السلام وزينوا المجالس بذكرهم، فتوجّ الأئمة عليهم السلام صنائع شيعتهم بالقبول وعدّوا مجالس الشيعة سيّدة المجالس كلّها، كشفاً لمقامها عند الله تعالى، والروايات تعدّ هذه الفضيلة في فضائل الشيعة الكبرى.

وروي في تفسير فرات عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خرجت أنا وأبي ذات يوم فإذا هو بأناس من أصحابنا بين المنبر والقبر فسلم عليهم، ثم قال: أما والله إنني لأحب ربحكم وأرواحكم، فأعينوني على ذلك بورع واجتهاد، من ائتمّ بعبد

(١) راجع بحار الأنوار (١٩٩/٣٨).

(٢) بحار الأنوار (١٤٥/٢).

فليعمل بعمله ، وأنتم شيعة آل محمد ﷺ ، وأنتم شرط الله ، وأنتم أنصار الله ، وأنتم السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ، والسَّابِقُونَ الْآخِرُونَ فِي الدُّنْيَا ، والسَّابِقُونَ فِي الْآخِرَةِ إِلَى الْجَنَّةِ ، قد ضمنا لكم الجنة بضمان الله وضمان رسول الله ﷺ وأهل بيته.

أنتم الطيبون ، ونساؤكم الطيبات ، كل مؤمنة حوراء ، وكل مؤمن صديق ، كم مرة قد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لقنبر: يا قنبر، أبشر وبشر واستبشر ، والله لقد قبض رسول الله ﷺ وهو ساخط على جميع أمته إلا الشيعة ، وإن لكل شيء شرفاً وإن شرف الدين الشيعة ، ألا وإن لكل شيء عروة وإن عروة الدين الشيعة ، ألا وإن لكل شيء إماماً وإمام الأرض أرض يسكن فيها الشيعة ، ألا وإن لكل شيء سيّداً وسيد المجالس مجالس الشيعة ، ألا وإن لكل شيء شهوة وإن شهوة الدنيا سكنى شيعتنا فيها.

والله لو لا ما في الأرض منكم ما استكمل أهل خلافتكم طيبات رزقهم وما لهم في الآخرة من نصيب ، كل ناصب وإن تعبد واجتهد منسوب إلى هذه الآية : ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ ، ومن دعي من مخالف لكم فإجابة دعائه لكم ، ومن طلب منكم إلى الله حاجة فله مئة ، ومن سأل مسألة فله مئة ، ومن دعا بدعوة فله مئة ، ومن عمل منكم حسنة فلا يحصى تضاعفها ، ومن أساء منكم سيئة فمحمد ﷺ حجيجه ، يعني يحاج عنه ، والله إن صائمكم ليرعى في رياض الجنة ، تدعو له الملائكة بالعون حتى يفطر ، وإن حاجكم ومعتمركم لخاص الله ، وإنكم جميعاً لأهل دعوة الله ، وأهل إجابته ، وأهل ولايته ، لا خوف عليكم ولا حزن ، كلكم في الجنة ، فتنافسوا في فضائل الدرجات.

والله ما من أحد أقرب من عرش الله تعالى بعدنا يوم القيامة من شيعتنا، ما أحسن صنع الله إليكم، والله لو لا أن تفتنوا فيشمت بكم عدوكم ويعلم الناس ذلك لسلمت عليكم الملائكة قبلاً، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: يخرجون - يعني أهل ولايتنا - من قبورهم يوم القيامة مشرقة وجوههم، قرّت أعينهم، قد أعطوا الأمان، يخاف الناس ولا يخافون، ويحزن الناس ولا يحزنون.

والله ما من عبد منكم يقوم إلى صلاته إلا وقد اكتنفته ملائكة من خلفه يصلّون عليه ويدعون له حتى يفرغ من صلاته، ألا وإن لكل شيء جوهرًا وجوهر ولد آدم - صلوات الله وسلامه عليه - نحن وشيعتنا^(١).

وظاهر الأخبار أنّ الذي أعدّه الله تعالى للشيعة من الثواب على مجالس ذكر أهل البيت عليهم السلام والتي يكون فيها على مصائبهم يفوق أمانيهم، وسيكرمهم بعقدها في الجنة، كما دلّت هذه الرواية، إذ جعل مجلس ذاكري أمير المؤمنين عليه السلام في ظلّ شجرة طوبى !!

وروي مسنداً عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لما نزلت ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَأْوٍ﴾ قام مقداد إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، وما طوبى؟ قال: يا مقداد، شجرة في الجنة، لو يسير الراكب الجواد لسار في ظلّها مائة عام قبل أن يقطعها، ورقها وقشورها برود خضر، وزهرها رياض، وأفنانها سندس وإستبرق، وثمرها حلل خضر، وطعمها زنجبيل وعسل، وبطحاؤها ياقوت أحمر وزمرد أخضر، وترابها مسك وعنبر، وحشيشها منيع وأنجوج

(١) راجع بحار الأنوار (٢٠٣/٧).

يتأجج من غير وقود، يتفجّر من أصلها السلسيل والرحيق والمعين، وظلّها مجلس من مجالس شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يألّفونه ويتحدّثون بجمعهم^(١).

(١) راجع بحار الأنوار (١٥١/٨)، والخبر طويل، وأحببت إيراده لأنّ فيه بيان مقام الشيعة يوم القيامة، وتمّمته: وبيناهم في ظلّها يتحدّثون إذ جاءتهم الملائكة يقودون نجباء جبلت من الياقوت، ثم نفخ الرّوح فيها مزمومة بسلاسل من ذهب، كأنّ وجوهها المصاييح نضارة وحسنا، وبرّها خزّ أحمر ومرعزى أبيض مختلطان، لم ينظر الناظرون إلى مثله حسنا وبهاءً، وذلك من غير مهلة، نجباء من غير رياضة، عليها رحال ألواحها من الدرّ والياقوت المفضضة باللؤلؤ والمرجان، صفائحها من الذهب الأحمر، ملبّسة بالعقري والأرجوان، فأناخوا تلك النجائب إليهم، ثم قالوا لهم: ربّكم يقرؤكم السّلام ويراكم وينظر إليكم ويحبّكم وتحبّونه، ويزيدكم من فضله وسعته، فإنه ذو رحمة واسعة وفضل عظيم.

قال: فيحمل كل رجل منهم على راحلته فينطلقون صفّاً واحداً معتدلاً، ولا يمرّون بشجرة من أشجار الجنة إلّا أتخفتهم بشارها ورحت لهم عن طريقهم كراهية أن يثلم طريقتهم وأن يفرق بين الرجل ورفيقه، فلمّا دفعوا إلى الجبار جل جلاله قالوا: ربّنا أنت السّلام ولك يحقّ الجلال والإكرام، فيقول الله تعالى: مرحبا بعبادي الذين حفظوا وصيّتي في أهل بيت نبي ورعوا حقّي وخافوني بالغيّب، وكانوا مني على كل حال مشفقين.

قالوا: أما وعزّتك وجلالك ما قدرناك حقّ قدرك، وما أدينا إليك كل حقّك، فأذن لنا في السجود. قال لهم ربّهم: إني وضعت عنكم مؤنة العبادة، وأرحت عليكم أبدانكم، وطال ما أنصبتم لي الأبدان وعنتم الوجوه، فالآن أفضيتم إلى رّوحي ورحمتي، فاسألوني ما شئتم، وتمنّوا عليّ أعطكم أمانيتكم، فإني لن أجزيكم اليوم بأعمالكم، ولكن برحمتي وكرامتي وطوّلي، وارتفاع مكاني، وعظم شأنني، ولحبّكم أهل بيت نبي. فلا يزال يرفع أقدار محبي علي بن أبي طالب عليه السلام في العطايا والمواهب، حتى أن المقصّر من شيعة ليتمنّى في أمنيته مثل جميع الدّنيا منذ يوم خلقها الله إلى يوم أفناها.

وللقاريء الكريم أن ينظر بامعان فيدقق في ربطهم عليه السلام الوثيق بين الأمر

فيقول لهم ربهم: لقد قصرتم في أمانيتكم، ورضيتم بدون ما يحق لكم، فانظروا إلى مواهب ربكم. فإذا بقباب وقصور في أعلى عليين، من الياقوت الأحمر والأخضر والأصفر والأبيض، فلو لا أنها مسخرة إذا للمتع الأبصار منها، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعقري الأحمر يزهر نورها، وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالرياش الأصفر، مثبوتة بالزمرد الأخضر والفضة البيضاء والذهب الأحمر، قواعدها وأركانها من الجواهر، يثور من أبوابها وأعراسها نور مثل شعاع الشمس، عنده مثل الكواكب الدرّي في النهار المضيء، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور جنتان ﴿مُدْهَامَتَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ وَفِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾.

فلما أن أرادوا أن ينصرفوا إلى منازلهم ركبوا على برازين من نور بأيدي ولدان مخلدين، بيد كل واحد منهم حكمة بردون من تلك البرازين، لجمها وأعتتها من الفضة البيضاء، وأنفارها من الجواهر، فلما دخلوا منازلهم وجدوا الملائكة يهثونهم بكرامة ربهم، حتى إذا استقروا قرارهم قيل لهم: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ ربنا رضينا، فارض عنا. قال: برضاي عنكم وبجبتكم أهل بيت نبيي أحللتكم داري، وصافحتكم الملائكة، فهنيئاً هنيئاً غير محذور، وليس فيه تنغيص، فعندها قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

قال أبو موسى: فحدثت به أصحاب الحديث عن هؤلاء الثمانية، فقلت لهم: أنا أبرأ إليكم من عهدة هذا الحديث لأن فيه قوماً مجهولين، ولعلمهم لم يكونوا صادقين، فرأيت من ليلتي أو بعد كأنه أتاني آت ومعه كتاب فيه من مخول بن إبراهيم والحسن بن الحسين ويحيى بن الحسن بن فرات وعلي بن القاسم الكندي ولم ألق علي بن القاسم وعدة بعد لم أحفظ أساميهم كتبنا إليك من تحت شجرة طوبى، وقد أنجز ربنا لنا ما وعدنا، فاستمسك بما عندك من الكتب، فإنا لن نقرأ منها كتاباً إلا أشرقت له الجنة.

بإقامة المجالس.. وبين توجيه استغلالها لإحياء أمرهم وإثارة قضاياهم وتزيينها بأسمائهم عليه السلام ولا سيما اسم أمير المؤمنين عليه السلام كطريق لنشر الدعوة الإسلامية.. وبين تركيزهم على جانب المصيبة فيها وضرورة البكاء على أرزائهم. وتتركز التوجيهات بصورة واضحة على رزية سيد الشهداء عليه السلام، فهي القضية الرمز والمأساة الأم، فإن كانت ترمز إلى المصائب التي قبلها بوضوح فهي ترمز إلى المصائب التي بعدها أيضاً بنفس الوضوح.

فقضية كربلاء مفصل قضاياهم عليه السلام الحساسة والمصيرية، واهتمامات العترة منصبة عليها ومركزة على كل أبعادها، ومن أهم طرق خلودها هو خلود هذه المجالس، ولهذا فإن المجالس الحسينية من أهم المظاهر الولائية والشعائر التي حازت تأييداتهم، وتصدى الإمام عليه السلام بنفسه لوضع حجرها الأساس، قصد تقنين منهجية المجلس الحسيني، وترسيخ معالم منبر القضية بكل دقة، لعلمه بنماء المؤسسة الحسينية عن طريق المجالس واتساعها، كما ويعتبر هذا منه عليه السلام تشريفاً لمقام الرثاة والذاكرين ما طلعت الشمس والنهار.

أول المجالس الحسينية

إنّ المحور الجامع الموجه في مجالس الذكر يدور في فلك مصيبة الإمام الحسين عليه السلام، إلى درجة أصبحت الرزية هي الطابع الغالب لتلك المجالس، فالمصيبة هي لوئها المراد، وتوالت سائر الأغراض في سياق هذا الغرض، ولا بد للإمام المعصوم نفسه أن يضع الحجر الأساس لمجلس الإمام الحسين عليه السلام ويحكم تثبيت اللبنة الأولى لانطلاقة هذه المؤسسة وفق المعايير الخاصة التي سيتلقاها الشيعة، فكان

أهل بيت النبوة ﷺ هم أول من رثى الإمام الحسين ﷺ بعد شهادته. وكان أول من رثاه الله تعالى أول ما خلقه ﷺ، ثم أوحى إلى أنبيائه ﷺ تبعاً خبر شهادته، ولما وُلد ﷺ أنزل ملائكته لجدّه ﷺ مهناً معزّية راثية، ورثاه جدّه ﷺ في أكثر من مورد وموطن، ورثاه مولانا أمير المؤمنين ﷺ كذلك، ورثاه أخوه الإمام الحسن ﷺ عند شهادته مسموماً، ورثاه جبرئيل ﷺ عند مصرعه، وقد تقدّم ذلك في هذا الكتاب.

غير أنّ أول مجلس أقيم بعد شهادته ﷺ هو الأرن في أسمع الشيعة والأكثر تأثيراً في وجدانهم، لأنه المنهج القدوة الجامع لأهداف الإمامة، وهو الحاوي لأغراض المجلس المثالي النموذجي، وهو المجلس الأوّل للإمام الحسين ﷺ، ولا بدّ أن يجذو الخطيب حذوه، فقد أقيم على منبر رقى أعواده الإمام زين العابدين ﷺ وأرسى فيه أسس الخطابة الحسينية على النهج المطلوب.

فالخطبة التي ألقاها الإمام زين العابدين ﷺ في الجامع الأموي بدمشق بعد مصرع أبيه ﷺ هي المحور التي يدور عليها سبك الخطابة الحسينية، وهي النواة التي يغرسها الشاهد الأكبر على ذلك الحدث الأضخم في تاريخ الدّنيا والإمامة، كأوّل بيان صادر عن الأسرة النبويّة، وهو الإمام الذي نصّ عليه أبوه ﷺ والحجّة من قبل ربّ العالمين، وقد تزامت عوامل أهميّة خطبته العظيمة، فجدير أن تُعتبر الأسوة والقدوة في منهاج الرّثاء الحسيني.

والخطبة جامعة لأغراض الدّعوة الإسلاميّة والرّثاء الحسيني معاً، وموانعة لسوى ذلك، وهي التّداء العام الأول في رثاء سيّد الشهداء ﷺ، وقيل في وصفها: "أبكى منها العيون، وأوجل منها القلوب" .. إذ استهلّها بديباجة الحمد

لله والثناء عليه والصلاة على نبيه ﷺ ، ويبدو أنه ركز في مستهلها على الوعظ حتى ألان الله تعالى القلوب بوعظه فتفجرت العيون بالدموع ، ثم شرع في بيان فضائل أهل البيت ﷺ ومناقبهم ، وعرف شخصه الكريم بنسبه الشريف المتصل بأبيه وجدّيه وجدّتيه ﷺ وأطنب في فضائل مولانا أمير المؤمنين ﷺ على وجه الخصوص ، وأعتقد أنه فعل ليزين مجلسه بذكره أولاً ، ولأنّ المشتوم في محفل يزيد هو أمير المؤمنين ﷺ وليس غيره ثانياً.

ثم انتهى بصورة متوالية إلى غرضه الأول الذي يطوي عليه ، فخاض في ذكر التعزية وعدّ رزايا أبيه المظلوم ﷺ ، فعرف نفسه لهؤلاء الجاهلين ، وعرفهم علو مقامه ومقام أهل بيته ﷺ ، ثم رثى أباه الشهيد ﷺ ، فحوّل هدوء المجلس الساكن إلى ضجّة واحدة من البكاء والعيول.. والظاهر أنّنا لم نحظ بمجموع خطبته الكاملة ، وهذا داعي الأسف الشديد ، فجاءت مقتضبة متفاوتة في النقل.

وإذا جمعنا شتات روايتها عن مصدرين كان هذا نصّ رواية الخطبة :

في المناقب : أن يزيد (لعنه الله) أمر بمنبر وخطيب ليخبر الناس بمساوي الحسين وعلي ﷺ وما فعلا ، فصعد الخطيب المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم أكثر الواقعة في علي والحسين ، وأطنب في تقريظ معاوية ويزيد فذكرهما بكل جميل . فصاح به علي بن الحسين ﷺ : " ويلك أيها الخاطب ، إشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق ، فتبوا مقعدك من النار " .

ثم قال علي بن الحسين ﷺ : " يا يزيد ، إءذن لي حتى أصعد هذه الأعواد ، فأتكلم بكلمات لله فيهن رضا ، ولهؤلاء الجلساء فيهن أجر وثواب " . فأبى يزيد عليه ذلك ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ، إءذن له فليصعد

المنبر، فلعلنا نسمع منه شيئاً، فقال: إنه إن صعد لم ينزل إلا بفضيحتي وبفضيحة آل أبي سفيان!! فقيل له: يا أمير المؤمنين وما قدر ما يحسن هذا؟ فقال: إنه من أهل بيت قد زُفوا العلم زقاً، فلم يزالوا به حتى أذن له، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم خطب خطبة أبكى منها العيون، وأوجل منها القلوب.

ثم قال: "أيها الناس أعطينا ستاً وفضلنا بسبع، أعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفضلنا بأنّ منّا النبي المختار محمداً ومنّا الصديق ومنّا الطيار ومنّا أسد الله وأسد رسوله ومنّا سبطا هذه الأمة، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي.

أيها الناس أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن زمزم والصفاء، أنا ابن من حمل الركن بأطراف الرداء، أنا ابن خير من اتترز وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجّ ولبى، أنا ابن من حمل على البراق في الهواء، أنا ابن من أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أنا ابن من بلغ به جبرئيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن محمد المصطفى.

أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا لا إله إلا الله، أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله بسيفين، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين، وباع البيعتين، وقاتل ببدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين، أنا ابن صالح المؤمنين، ووارث النبيين، وقامع الملحددين، ويعسوب المسلمين، ونور

المجاهدين، وزين العابدين، وتاج البكّائين، وأصبر الصّابرين، وأفضل القائمين، من آل ياسين، رسول ربّ العالمين.

أنا ابن المؤيد بجبرئيل، المنصور بميكائيل، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين، وقاتل المارقين والناكثين والقاسطين، والمجاهد أعداءه الناصبين، وأفخر من مشى من قريش أجمعين، وأول من أجاب واستجاب لله ولرسوله من المؤمنين، وأول السابقين، وقاصم المعتدين، ومبيد المشركين، وسهم من مرّمي الله على المنافقين، ولسان حكمة العابدين، وناصر دين الله وولي أمر الله وبستان حكمة الله وعيبة علمه.

سمحٌ سخيٌّ بهيٍّ بهلولٌ زكيٌّ أبطحيٌّ رضيٌّ مقدامٌ همامٌ صابرٌ صوامٌ مهذبٌ قوامٌ، قاطعُ الأصلاب، ومفرقُ الأحزاب، أربطهم عناناً، وأثبتهم جناناً، وأمضاهم عزيمة، وأشدهم شكيمة، أسد باسل، يطحنهم في الحروب إذا ازدلفت الأسنّة وقربت الأعنة طحن الرحي ويذروهم فيها ذرو الريح الهشيم.

ليث الحجاز، وكبش العراق، مكّيٌّ مدنيٌّ خيفيٌّ عقبيٌّ بدريٌّ أحديٌّ شجريٌّ مهاجريٌّ، من العرب سيّدها، ومن الوغى ليثها، وارث المشعرين، وأبو السبطين، الحسن والحسين، ذاك جدي علي بن أبي طالب."

ثم قال عليه السلام: "أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيدة النساء" (١).

وفي رواية أخرى في نفس المناقب عن كتاب الأحمر، قال الأوزاعي: أنه

عليه السلام قال: "أنا ابن خديجة الكبرى.

(١) راجع بحار الأنوار (١٣٧/٤٥)، عن المناقب.

أنا ابن المقتول ظلماً، أنا ابن المجزوز الرأس من القفا، أنا ابن العطشان حتى قضى، أنا ابن طريح كربلاء، أنا ابن مسلوب العمامة والرداء، أنا ابن من بكت عليه ملائكة السماء، أنا ابن من ناحت عليه الجن في الأرض والطير في الهواء، أنا ابن من رأسه على السنن يهدى، أنا ابن من حرمه من العراق إلى الشام تسبى".

فلم يزل يقول: "أنا أنا" حتى ضج الناس بالبكاء والنحيب، وخشي يزيد أن يكون فتنة، فأمر المؤذن فقطع عليه الكلام.

فلما قال المؤذن: الله أكبر، الله أكبر.

قال علي عليه السلام: "لا شيء أكبر من الله".

فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله.

قال علي بن الحسين عليه السلام: "شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي".

فلما قال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله، إلتفت من فوق المنبر إلى يزيد، فقال: "محمدٌ هذا جدي أم جدك يا يزيد؟ فإن زعمت أنه جدك فقد كذبت وكفرت، وإن زعمت أنه جدي فلم قتلت عترته"!!^(١).

وقررت الإرادة الإلهية أن يبذر الإمام زين العابدين عليه السلام نواة المجلس الحسيني في قعر محفل بني أمية ومركز عاصمتهم، لتنطلق مسيرة الخير والنماء من قلب الخلافة الأموية ومحيط عرشها، كما نشأ موسى عليه السلام في حجر فرعون وقصره وانطلق من أحضانه فقوض بسلطانه حتى ذراه أدرج الرياح!!

وليس من الصدفة أن يغرس الإمام زين العابدين عليه السلام وهو وليّ الثأر

(١) راجع بحار الأنوار (١٧٤/٤٥)، عن المناقب لابن شهر آشوب (٤/١٦٨).

وورث المصاب والحزن نواة المجلس الحسيني ، فهو الأجدر بهذه المهمة ، ولهذا فإنّ أحزانه وآلامه لم تُعق هدفه الذي كان يرمي إليه ، وبدى قوياً صلباً وسلك نهجاً واضحاً ومُناسباً يجمع بين العقل والعاطفة.. متسامياً على كلّ جراحه ، مشمراً عن ذراع الجدّ والعمل لإكمال الخطّ الذي شقّه والده عليه السلام بحزم وقوة وثبات ، وكأنّه يقول : لقد أدّى والدي الشهيد ما عليه وبقي الذي علينا.

وكانت كلماته الساخنة التي أطلقها في محفل الطاغية في قلب عاصمته السّوط المقرّع للظالمين ، كما أنّها النهج البين والمحجّة المثلى لسالكي طريق الخدمة الحسينية على مرور الليالي والأيام ، فالأجدر أن يحذو حذوه الخطيب والشاعر والرّائي إذا رام التوفيق والقبول ، فقد قنن عليه السلام منهجية رثاء أبيه الشهيد عليه السلام بشكل متكامل يتناسب مع علو مقامه وفادح مصابه ، بأداء يتكافأ مع الحادثة الأليمة.

وكانت مهمة الإمام عليه السلام شاقّة ومتوالية ، وحدثنا الرواة عن مجلس آخر أقامه في مسقط رأسه ووطنه المدينة المنورة ، بعد عودته ولقاء المعزّين له بالبكاء والعزاء ، وينبغي التأمّل في هذا النصّ التاريخي المهم ، فهو يضعنا على نفس الخط الذي اختطّه في محفل الطاغية ، ويدلّل على ذات المنهجية.

روى بشير بن حذلم : ... فلما قربنا منها - أي المدينة المنورة - نزل علي بن الحسين عليه السلام فحطّ رحله وضرب فسطاطه وأنزل نساءه ، وقال يا بشير: رحم الله أباك ، لقد كان شاعراً ، فهل تقدر على شيء منه ؟ قلت : بلى يا ابن رسول الله ، إني لشاعر.. قال : فادخل المدينة ، وانع أبا عبد الله..

قال بشير: فركبت فرسي وركزت ، حتى دخلت المدينة ، فلما بلغت مسجد

النبي ﷺ رفعت صوتي بالبكاء.. وأنشأت أقول :

يا أهلَ يثربَ لا مقامَ لكم بها قُتِلَ الحَسِينُ فأدْمَعِي مدرارُ
الجسْمُ منه بكربلاءَ مضرِّجُ والرأسُ منه على القنّاةِ يُدارُ

قال : ثم قلت : هذا علي بن الحسين مع عمّاته وأخواته قد حلّوا بساحتكم ونزلوا بفنائكم ، وأنا رسوله إليكم أعرّفكم مكانه ، فما بقيت في المدينة مخدّرة ولا محجّبة إلا برزن من خدورهن ، مكشوفة شعورهن ، مخمّشة وجوههن ، ضاربات خدودهن ، يدعون بالويل والثبور ، فلم أرَ باكيا أكثر من ذلك اليوم ، ولا يوماً أمرّ على المسلمين منه .

فضربت فرسي حتى رجعت إليهم ، فوجدت الناس قد أخذوا الطرق والمواضع ، فنزلت عن فرسي وتخطّيت رقاب الناس حتى قربت من باب الفسطاق ، وكان علي بن الحسين عليّ السلام داخلاً ومعه خرقة يمسح بها دموعه ، وخلفه خادم معه كرسي ، فوضعه له وجلس عليه ، وهو لا يتمالك من العبرة ، وارتفعت أصوات الناس بالبكاء وحنين الجوّاري والنساء ، والناس من كل ناحية يعزّونه ، فضجت تلك البقعة ضجة شديدة ، فأوماً بيده أن اسكتوا فسكنت فورتهم .

فقال عليّ السلام : " الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، بَارِيءِ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ ، الَّذِي بَعْدَ فَارْتَفَعِ فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى ، وَقَرَّبَ فَشْهَدَ النَّجْوَى ، نَحْمَدُهُ عَلَى عِظَائِمِ الْأُمُورِ ، وَفَجَائِعِ الدَّهْورِ ، وَأَلَمِ الْفَجَائِعِ ، وَمِضَاضَةِ اللُّوَادِعِ ، وَجَلِيلِ الرَّزْءِ ، وَعَظِيمِ الْمِصَائِبِ الْفَاضِعَةِ الْكَاطِئَةِ الْفَادِحَةِ الْجَائِحَةِ .

أيّها الناس ، إن الله - وله الحمد - ابتلانا بمصائب جليّة ، وثلمة في الإسلام عظيمة ، قُتل أبو عبد الله وعترته ، وسبي نساؤه وصبيته ، وداروا برأسه في البلدان من فوق عامل السنان ، وهذه الرزية التي لا مثلها رزية .

أيّها الناس ، فأيّ رجالات منكم يسرون بعد قتله ، أم آية عين منكم تحبس دمعها وتضن عن انهمالها ، فلقد بكت السبع الشداد لقتله ، وبكت البحار بأمواجها ، والسموات بأركانها ، والأرض بأرجائها ، والأشجار بأغصانها ، والحيتان ولجج البحار ، والملائكة المقربون ، وأهل السماوات أجمعون .

أيّها الناس ، أيّ قلب لا ينصدع لقتله ، أم أيّ فؤاد لا يحن إليه ، أم أيّ سمع يسمع هذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام .

أيّها الناس ، أصبحنا مطرودين مشرّدين مذودين ، شاسعين عن الأمصار ، كأننا أولاد ترك وكابل ، من غير جرم اجترمانه ، ولا مكروه ارتكبناه ، ولا ثلمة في الإسلام ثلمناها ، ما سمعنا بهذا في آباتنا الأولين ، والله لو أن النبي تقدم إليهم في قتالنا كما تقدم إليهم في الوصاية بنا لما ازدادوا على ما فعلوا بنا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، من مصيبة ما أعظمها وأوجعها وأفجعها وأكظّها وأفظّها وأمرّها وأفدحها ، فعند الله نحتسب فيما أصابنا وما بلغ بنا ، إنه عزيرٌ ذو انتقام^(١) .

وانطلقت مسيرة المجلس الحسيني كأول ظاهرة للشعائر الحسينية في سياق الحزن والبكاء ، في صورة مؤسّسة واضحة المعالم ، وكان لها شرف الإنطلاق على يد الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام ، ثم جدّ الشيعة في السير على ذلك المنوال ،

(١) راجع اللهوف للسيد ابن طاووس ، عنه بحار الأنوار (١٤٧/٤٥) .

وتابعوا ذات النهج بأصله وفحواه ، وتلقوا الرسالة بمسؤولية كاملة ، وحملوا ثقل الأمانة ، ثم راح أئمة أهل البيت عليهم السلام يكملون تأسيس المسيرة المظفّرة ، ويعمّقون أصولها في أعماق المجتمعات والنفوس .

مجالس حسينية خالدة

واجه أئمة أهل البيت عليهم السلام حرباً شعواء طاحنة ، أخفاها أعداؤهم وأعلنوها تارة أخرى ، وجهد أعدائهم الجهد قتل مجالس الإمام الحسين عليه السلام ووآد نورها وإطفاء جذوتها ، لأنهم أدركوا أنّها رمز قضايا العترة عليهم السلام وشعار قوّة أمرهم ، فأرادوا إبّادتهم بقتل هذا الشّعار وإخماد صوت ظلامتهم ، وكبح جماح تطوّرها ونمائها وتضخّمها وانتشارها ، لكنهم محالاً طلبوا !!

فأهل البيت عليهم السلام قوّة فوق القوي كلّها ، والله تعالى من وراء نصرهم ، فاستطاعوا الصّمود أمام تعاقب الأخطار وتطوّر المواجهات ، وواجهوا أعتى الحروب وتحملوا أصعب المصاعب ، حتى نجحت أهدافهم وتمكّنوا من إحياء شعائر الحزن والمحافظة على المجالس الحسينية حتّى وصلت إلينا بشموخ على هذه الشّاكلة المتميّزة ، كأعلى أمانة تكتنفها صدور المؤمنين ، يعرفون قدرها جيّداً ، كي يسلمونها بدورهم لمن يأتي بعدهم .

وقد مرّ عليك منقولاً عن فرحة الغري أن الإمام زين العابدين عليه السلام ضرب فسطاطاً خارج المدينة المنورة مدّة طويلة ، والظاهر أنّه اضطر لذلك لسوء الظروف الأمنية فيها وفي أقطار الإسلام.. لكنّ كتب التاريخ نقلت أن السيّدة زينب بنت أمير المؤمنين عليها السلام قد أذكت أوار المجالس الحسينية وأشعلت القلوب حزناً وأسفاً ،

مَّا أَلَّب النَّاسَ عَلَى بَنِي أُمِّيَّةٍ ، فَخَافَ عَمْرُو بْنُ سَعْدِ الْأَشْدُقِ - وَالْيَ يَزِيدَ عَلَى الْمَدِينَةِ - انْتِقَاضَ الْأَمْرِ ، فَكَتَبَ إِلَى الْأَخِيرِ كِتَابًا يَشْكُوا إِلَيْهِ الْحَالُ فِيهِ ، فَكَتَبَ لَهُ بِأَمْرِهِ بِالتَّفْرِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّاسِ ، فَأَمَرَ الْوَالِيَّ بِإِخْرَاجِهَا مِنَ الْمَدِينَةِ^(١) .

ولقد أدرك الظالمون تأثير بكاء المظلوم على الأمة وخطره على عروشهم الهشة ، وهذا هو السر الذي وقف وراء منع الصديقة الزهراء عليها السلام من البكاء على أبيها النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته ، فطلبوا من أمير المؤمنين عليه السلام أن يخيّرهما بين البكاء ليلاً أو نهاراً ، لأنّ بكاءها يشعرهم بأذى التفرّيع ويذكّرهم ببقاء عار هضمها وظلمها ، الأمر الذي كان يؤرّقهم ويؤذيهم.

وكانت الظروف السياسيّة ملائمة لرفع الشعار الحسيني ، وموائمة لتحرك الأئمة عليهم السلام العلني ، فقوّة الأمويّين لم تدم طويلاً ، وسرعان ما تلاشت هيبتهم وتقهقرت دولتهم ، فاغتنم الأئمة عليهم السلام ظروف ضعف الدولة الأمويّة وانتقال الخلافة إلى العباسيين فأذكوا جذوة التعزية الحسينية وأشعلوا فتيل حزنها من جديد وبكيفيات متواضعة.. فإذا ما أجلنا نظرنا في سيرهم وجدنا نماذج لمجالس الذكر المحبّذة عندهم المملوءة بالمقاصد الغنيّة ، وفيها تتجلّى أغراضهم حيّة ومعلنة ، وتبدو فيها الأولويّات بصورة مختصرة حسب ما يحتمله ظرفهم ، وتنامت المؤسسة الحسينيّة شيئاً فشيئاً ، حتّى وصلت إلى وضعها الرّاهن..

❖ أورد المرحوم المجلسي رحمته الله في بحار الأنوار مسنداً إلى أبي هارون المكفوف ، قال : دخلتُ على أبي عبد الله الصّادق عليه السلام فقال لي : أنشدني ، فأنشدته.

(١) راجع أخبار الزينبات للنسابة العبيدلي ص (٢١).

فقال : لا ، كما تشدون وكما ترثيه عند قبره. فأنشدته :

أمرُّ على جدِّ الحسين وقل لأعظمه الزكيه
قال : فلما بكى أمسكت. فقال : مُر. فمررتُ. ثم قال : زدني. قال : فأنشدته :
يا مريمُ قومي واندبي مولاكُ وعلى الحسينِ فأسعدي بكاكُ
قال : فبكى ، وتهايج النساء ، فلما سكتن ، قال لي : " من أنشد في الحسين
عليه السلام فابكى عشرة فله الجنة ، ثم جعل ينتقص واحداً واحداً حتى بلغ الواحد "
فقال : " من أنشد في الحسين عليه السلام فابكى واحداً فله الجنة " ، ثم قال : " من ذكره
فبكى فله الجنة " (١).

❖ روى أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني مسنداً إلى علي بن إسماعيل
التميمي ، عن أبيه ، قال : كنت عند أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام فاستأذن
أذنه للسيد الحميري ، فأمر بإيصاله ، وأقعد خلف ستر ، ودخل فسلم وجلس ،
فأستنشه فأنشد قوله :

أمرُّ على جدِّ الحسينِ فقل لا أعظمه الزكيه
آ أعظماً لا زلت من وطفاء ساكبةً روييه
وإذا مررت بقبره فأطل به وقف المطيه
وأبك المطهر للمطهر والمطهرة التقييه
كبكاء معولة أتت يوماً لواحدٍ منها المنيه

(١) راجع بحار الأنوار (٤٤/٢٨٧/٢٥) عن كامل الزيارة ، والوسائل (١٠/٤٦٥) ما يقرب منه ،
ونحوه في ثواب الأعمال.

قال: فرأيت دموع جعفر بن محمد عليه السلام تنحدر على خديه، وأرتفع الصراخ من داره حتى أمره بالإمساك فأمسك.

وتوالى النقل للمجالس والمآتم التي عقدها الإمام الصادق عليه السلام، وقد سبق أن قلنا أن أكثر النصوص في هذا الباب مروية عنه عليه السلام.

❖ روى العلامة المجلسي رحمته الله أنه دخل جعفر بن عفان على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فقرببه وأدناه، ثم قال له: يا جعفر.

قال: لبيك جعلني الله فداك.. قال: بلغني أنك تقول الشعر في الحسين وتجد. فقال له: نعم جعلني الله فداك. فقال له: قل..

فأنشدته، فبكى ومن حوله حتى صارت الدموع على وجهه ولحيته.

ثم قال: يا جعفر، والله لقد شهدت ملائكة الله المقربون هاهنا يسمعون قولك في الحسين عليه السلام، ولقد بكوا كما بكينا وأكثر، ولقد أوجب الله تعالى لك يا جعفر في ساعته الجنة بأسرها وغفر الله لك.

ثم قال: يا جعفر ألا أزيدك؟ قال: نعم يا سيدي.

قال: ما من أحد قال في الحسين شعراً، فبكى وأبكى به إلا أوجب الله له الجنة وغفر له^(١).

وتعتبر هذه المجالس الحسينية المأثورة التي عقدها أئمة أهل البيت عليهم السلام الأصل والنموذج للمجالس المستقبلية، وتعدّ بمثابة رأس المال الكبير الذي سوف تعتمد عليه الشيعة في المؤسسة الحسينية، فعمدتها الذكر وهدفها الإنشاد والرثاء،

(١) راجع بحار الأنوار (٤٤/٢٨٢).

وليست المقاصد الأخرى كالوعظ والإرشاد والعلم إلا ضمائم راجحة لا شك في أهميتها، لكنّها ستكون ناقصة إذا خلت من ذكر مصيبة الإمام الحسين عليه السلام. وبدأت في أفق القضية الحسينية ظاهرة المنشدين في عصر الأئمة الأبرار عليهم السلام وتطوّرت تفاعلاتهم مع القضية، خصوصاً بعد تلقي مشاركاتهم بالرضا والقبول، وكان استناد المنشدين في ذلك راجعاً إلى أمرهم عليهم السلام وتشجيعهم، ووظيفة المنشدين المصطلح عليها عند البعض اليوم "المدّاحين" مهمة ومقدّسة وجذورها ممتدّة إلى عصر الأئمة عليهم السلام، كما يقوم بدورها اليوم الخطيب الحسيني بأكمل وجه.

وكان الأئمة عليهم السلام قد وظّفوا المحبّين والمتميّزين لراثهم، ليتم نشر القضية بأصداؤها المحزنة، وأسندوا طريقة أدائها إلى الفنون المتعارفة والمتداولة، وعبر وسائل الإعلام المتاحة في ذلك الزمن، واستفادوا من لغة زمنهم في تعزيز الحزن، فيكون الرثاء بالتدرّج ووظيفة مستقلة قائمة بذاتها، ومهمّة تجذب إليها المتميّزين. وشاء الله تعالى لهذه البذرة الطيبة الحياة والنماء، فأنبئت واخضر عودها، ورسّت جذورها، وتناولت أغصانها وأظهرت ثمارها، وتطوّرت أداء المجلس الحسيني من بعد الرثاء المحض إلى ضم الدروس والمحاضرات.. ومسك الختام رثاء الحسين عليه السلام مماشاة للسبك المأثور.

وامتاز خدام الإمام الحسين عليه السلام باحترام الأئمة عليهم السلام وتبجيلهم، وكانت هذه الفئة محلّ عنايتهم وعطفهم، ومُنيت بإرشاداتهم وتأييداتهم، فالرثاء خطباء وروايد هم ناشروا صوت الظلام الصّارخة في أرجاء عواصم الإسلام، وهم الأقرب إلى المجتمع والأقدر على التأثير عليه في كل عصر، وهم ذاتهم الذين

يجابهون اليوم وسائل الإعلام بتطورها وتقدمها بقدراتهم الجبارة المتواضعة، ولا يخامرني شك في قدرتهم على محق أعداء القضية الحسينية وسحقهم رغم قدم أساليبهم الكلاسيكية - كما يعبر عنها البعض - وتطور وسائل الإعلام المضاد.

❖ رُويَ في كامل الزيارات بالإسناد إلى أبي عمارة المنشد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي: يا أبا عمارة، أنشدني في الحسين عليه السلام، قال: فأنشدته فبكى، ثم أنشدته فبكى، ثم أنشدته فبكى، قال: فوالله ما زلت أنشده ويبكي، حتى سمعت البكاء من الدار.

فقال لي: "يا أبا عمارة، من أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فأبكى خمسين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى أربعين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى ثلاثين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى عشرين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى عشرة فله الجنة، ومن أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فأبكى واحداً فله الجنة، ومن أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فبكى فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فتباكى فله الجنة"^(١).

وهو عليه السلام القائل للفضيل بن يسار: "إن تلك المجالس أحبها فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيى أمرنا، يا فضيل من ذكرنا أو ذكرونا عنده فخرج من عينيه مثل جناح الذباب غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر"^(٢).

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٠٥)، وبحار الأنوار (٢٨٢/٤٤)، وثواب الأعمال ص (٨٤)، ووسائل الشيعة (٥٩/١٤).

(٢) راجع بحار الأنوار (٢٨٢/٤٤) و (٣٥١/٧١)، وثواب الأعمال ص (١٧٨)، ووسائل الشيعة (٢٠/١٢) و (٥٠١/١٤)، وبشارة المصطفى ص (٢٧٥)، وقرب الإسناد ص (٨)،

وروي في المناقب خبر المجلس الذي عقده الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام المعروف بالعطاء والكرم، وفيه صورة من صور الكرم العلوي الذي سارت بآياته الركبان، وسترى كيف جاد عليه السلام بعطائه على راوية شعر لأنه روى الشعر في جدّه الإمام الحسين عليه السلام.

❖ فيروى: أنّ المنصور تقدّم إلى موسى بن جعفر عليه السلام بالجلوس للتهنئة في يوم النيروز، وقبض ما يحمل إليه، فقال عليه السلام إني قد فتشت الأخبار عن جدّي رسول الله ﷺ فلم أجد لهذا العيد خبراً، وإنّه سنّة للفرس، ومحاه الإسلام، ومعاذ الله أن نحیی ما محاه الإسلام.

فقال المنصور: إنّما نفعل هذا سياسةً للجند، فسألتك بالله العظيم إلاّ جلست. فجلس، ودخلت عليه الملوك، والأمراء، والأجناد يهتئون، ويحملون إليه الهدايا والتحف، وعلى رأسه خادم المنصور يحصي ما يحمل.

فدخل في آخر الناس رجل شيخ كبير السنّ، فقال له: يا بن بنت رسول الله، إنّني رجل صعلوك، لا مال لي، أتتحفك بثلاث أبيات قالها جدّي في جدّك الحسين بن علي عليه السلام:

عَجِبْتُ لِمَصْقُولٍ عَلاكَ فِرْنَدُهُ	يَوْمَ الْهَيَّاجِ وَقَدْ عَلاكَ غَبَارُ
وَأَسْهُمٍ نَفَذْتَكَ دُونَ حَرَائِرِ	يَدْعُونَ جَدَّكَ وَالِدَمَوْعُ غَزَارُ
أَلَا تَقْضُقُضْتَ السَّهَامُ وَعَاقَهَا	عَنْ جَسْمِكَ الْإِجْلَالُ وَالْإِكْبَارُ

قال عليه السلام: قبلت حديثك، إجلس بارك الله فيك. ورفع رأسه إلى الخادم

وقال: إِمض إلى أمير المؤمنين، وعرفه بهذا المال، وما يصنع به. فمضى الخادم وعاد وهو يقول: كلّها هبةٌ منّي له يفعل به ما أراد. فقال موسى عليه السلام للشيخ: إقبض جميع هذا المال فهو هبةٌ منّي لك^(١).

تطور المجالس الحسينية

كان الإمام الصادق عليه السلام يقول لبعض أصحابه: أبلغ موالِيّ عني السلام، وأني أقول رحم الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكرا أمرنا، فإن ثالثهما ملك يستغفر لهما، وما اجتمع إثنان على ذكرنا إلا باهى الله تعالى بهما الملائكة، فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر، فإن في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياءنا، وخير الناس من بعدنا من ذاكر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا^(٢).

ومن هذا المنطلق العقائدي الذي أسسته أيمان العترة عليهم السلام بإتقان انطلق شيعتُهُم بالحب والوداد ورغبة المواساة لهم وحملوا على عاتقهم إكمال المسيرة الحسينية وبذل النفس والنفيس في سبيل المحافظة عليها، ومن الطبيعي أن يشهد المنبر الحسيني مراحل متتابعة وحلقات متتالية من التطور والنماء بحسب ما تقتضيه طبيعة العصور.

وتربّع المنشدون والنائحون في الصدارة منذ تأسيس المجلس الحسيني، فهم أوائل القراء الحسينيين، وكذا الحال بالنسبة للمجالس النسائية، إذ لمعت أسماء

(١) راجع المناقب لابن شهر آشوب (٤/ ٣١٨ - ٣١٩).

(٢) راجع أمالي الطوسي ص (٢٢٤) بالإسناد إلى معتب مولى الإمام عليه السلام، والمخاطب في الخبر داود بن سرحان، وراجع وسائل الشيعة (١٦/ ٣٤٨)، ومستدرك الوسائل (٨/ ٣٢).

عدّة من النّائحات في العصر القديم، وتميّزوا رجالاً ونساءً بحسن الأداء والخبرة والإجادة لألحان الحزن، والحفظ لجيد الشعر في هذا المجال، فالشعر هو المادة الأساسية التي تدور عليها رحي تلك المجالس، وتنامت هذه المادة بشكل ظاهر بكثرة الشعراء وتنوّع الأذواق، وتأصلّ ترابط الشعر بالمجلس الحسيني، وامتزج به وعُدّ أحد مكوناته وعناصره.

ثمّ أضيف على مادة الشعر مادة أخرى، ألا وهي القصص والأخبار المتصلة بنفس الغرض، ولا يزال يُصطلح عليها "السيرة الحسينية" حتّى اليوم، ولمع في هذا المضمار قصّاصون ومحدّثون يقومون بوصف الأحداث المؤلمة وسردها بطرق الحزن مع الإنشاد والبكاء، وبهذه الطريقة يُحيي هؤلاء أمر أهل البيت عليهم السلام ويبينون قصة مقتل الإمام الحسين عليه السلام وتعمّر تلك المجالس.

ونستطيع الجزم بأنّ هذا التطور في مادة المنبر الحسيني ظهر في عصر الأئمة الأبرار عليهم السلام وتحت نظرهم، وبالتحديد في زمن الإمام الصادق عليه السلام، فإنّ بعض الشيعة رغم بعدهم المكاني عنهم عليهم السلام تلقّوا الدرس وفهموه بإكمال مسيرة البكاء والحزن والسعي فيها إلى كمالها المنشود، مستخدمين كل وسائل الإعلام المتاحة في ذلك الزمّن لإذكاء الدّمة، ونقل المأساة بحرارتها إلى الأجيال بكلّ أمانة وصدق.

وروي في كامل الزيارات عن عبد الله بن حماد البصري أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال له: إن عندكم - أو قال في قربكم - لفضيلة ما أوتي أحد مثلها، وما أحسبكم تعرفونها كنه معرفتها، ولا تحافظون عليها، ولا على القيام بها، وإن لها لأهلاً خاصّة قد سُمّوا لها، وأعطوه بلا حول منهم ولا قوة، إلا ما كان من

صنع الله لهم، وسعادة جباهم الله بها، ورحمة ورأفة وتقدم.

قلت: جعلت فداك، وما هذا الذي وصفت لنا، ولم تُسمّه؟

قال: زيارة جدي الحسين بن علي عليه السلام فإنه غريب بأرض غربة، يبكيه من زاره، ويحزن له من لم يزره، ويحترق له من لم يشهده، ويرحمه من نظر إلى قبر ابنه عند رجله في أرض فلاة، لا حميم قربه ولا قريب، ثم منع الحق وتآزر عليه أهل الردة حتى قتلوه وضيعوه، وعرضوه للسباع، ومنعوه شرب ماء الفرات الذي يشربه الكلاب، وضيعوا حق رسول الله ﷺ ووصيته به وبأهل بيته، فأمسى مجفواً في حفرته، صريعاً بين قرابته وشيعته بين أطباق التراب، قد أوحش قربه في الوحدة والبعد عن جدّه، والمنزل الذي لا يأتيه إلا من امتحن الله قلبه للإيمان وعرفه حقنا.

فقلت له: جعلت فداك، قد كنت آتية حتى بليت بالسلطان وفي حفظ أموالهم،

وأنا عندهم مشهور، فتركت للتقية إتيانه، وأنا أعرف ما في إتيانه من الخير..

فقال: هل تدري ما فضل من أتاه؟ وما له عندنا من جزيل الخير؟

فقلت: لا.. فقال: أما الفضل فيباهيه ملائكة السماء، وأما ما له عندنا

فالترحم عليه كل صباح ومساء، ولقد حدثني أبي أنه لم يخل مكانه منذ قتل من مصلّ يصلي عليه من الملائكة، أو من الجن، أو من الإنس، أو من الوحش، وما من شيء إلا وهو يغبط زائره ويتمسح به ويرجو في النظر إليه الخير لنظره إلى قبره عليه السلام.

ثم قال: "بلغني أن قوماً يأتونه من نواحي الكوفة، وناساً من غيرهم،

ونساءً يندبونه، وذلك في النصف من شعبان، فمن بين قاريء يقرأ، وقاص

يقص ، ونادب يندب ، وقائل يقول المراثي "

فقلت : نعم ، جعلت فداك ، قد شهدت بعض ما تصف .

فقال : الحمد لله الذي جعل في الناس من يفد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا ، وجعل عدونا من يطعن عليهم من قرابتنا ، وغيرهم يهددونهم ويقبّحون ما يصنعون^(١) .
 وكان مولانا الصادق عليه السلام يتابع بعناياته تلك المظاهر التي يظهرها الشيعة والمحبون في كربلاء المقدسة على بعد المسافة بينه وبينهم ، ويتحرى أخبار العزاء في بقعة العزاء ، وأجزم اليوم أنّ إمامنا صاحب الزمان عليه السلام يتابع ويتحرى أخبار زوار جدّه عليه السلام ويشاركهم الحضور تحت قبّته السامية ، شأنه في ذلك شأن آبائه عليهم السلام في رعاية الشعائر الحسينية - زاد الله في شرفها - ويدير رحي تطورها ويرعاها بدعائه وكرمه ..

هذا ، ودوّنت - في تطوّر ملحوظ في تاريخ المجالس الحسينية - تلك القصص والأخبار المتلوّة في المجالس في كتب خاصّة ، وعُرفت بالمقاتل ، وكان كتاب مقتل الحسين عليه السلام هو مادة المجالس لفترة طويلة ، ولا نزال ندرك بقايا هذه المرحلة في مجالس بلاد الخليج بشاطئيه وفي جنوب العراق ، فإنّ المقتل يُقرأ في يوم عاشوراء على وجه الخصوص ، وأضاف قرّاء التعزية له الشعر الرثائي وجودوا ألحان الحزن ، لتصدرّ المادة القصصية الروائية ، وتختتم برثاء الإمام الحسين عليه السلام شعراً .
 وفي مرحلة قريبة أضيفت أشعار المناقب والفضائل إلى مادة المجالس الأساسية ، ثمّ أضيفت أخبار الفضائل والمناقب إلى مادّتها ، مع بعض المراثي

(١) راجع كامل الزيارات ص (٣٢٥) ، عن بحار الأنوار (٧٣/٩٨) ، ووسائل الشيعة (٥٩/١٤) .

النثرية المصاغة ببيان مهرة الأدب العربي من عشاق المولى أبي عبد الله عليه السلام.
لقد تطوّرت القراءة الحسينية وشهدت في هذه النقلة النوعية انعطافة كبيرة بانفتاحها على المواد الإضافية، مما يُطوّر في تأثيرها ويؤسس لنموها، وقد ألفت وصنّفت عبر الأزمان المتتالية بعض الكتب أو نُسخ المجاميع نتيجة لهذا التطور الذي آل إليه المنبر، ككتاب "مثير الأحران" للشيخ ابن نما الحلّي، و"مثير الأحران" للشيخ الجواهري، و"المنتخب في المراثي والخطب" للشيخ فخر الدين الطريحي، و"الفوادم الحسينية" للشيخ حسين العصفور، وغيرها الكثير.
والمكتبات والحسينيات الشيعية زاخرة بهذه النسخ القديمة، وقلّ ما يخلو مآتم قديم من نسخة عتيقة متهرّاة من هذه النسخ، ويظهرها أصحاب المآتم في المناسبات لتلاوتها بحسب السبك القديم وألحانه المتوارثة قبل المجلس الحسيني.
ولقد جُبت هذه السنّة في مكتبة المرحوم الشيخ كاشف الغطاء رحمته الله في النجف الأشرف - ورأيت فيما رأيت - كثيراً من هذه النسخ، المكتوبة أصلاً للتلاوة في المجالس، بأقلام العلماء والأدباء والرثاة والخطباء، ويجمعها كلّها نظامٌ واحد، فهي مبوّبة ومتدرّجة على السيرة الحسينية، ومطعّمة بالشعر الفصيح، وربّما الشعر الشعبي، وفيها نثرٌ مسجّع، وفوائد مهمّة لا زال الخطباء يستفيدون منها.
ثم تطوّرت مادّة المجالس بشكل ملحوظ وسريع من بعد هذه الحقبة، فأضاف الرثاة على مادّتها المتداولة نصوص كتاب نهج البلاغة، فصاروا يبدأون خطبهم بحكمة أو كتاب أو رسالة ممّا روي من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، ثم يخوضون في شرحها ويبينون ما يتعلّق بها من أحداث تاريخية وما يناسبها من القصص والشعر، ويستغلّون ذلك في الوعظ وبيان بعض المسائل الدينية

العقائدية والفقهية.. ومع هذه القفزة الكبيرة في تأريخ المجالس الحسينية نستطيع أن نعبر عن الرأسي بـ (الخطيب)..

فبعد الإنفتاح على هذا المنطلق الواسع تتجدد المطالب والمواد المتداولة على المنبر الحسيني بشكل سريع ومتطور، وتواكب مستوى العصر، وتلبي حاجة الزمن، ولهذا فإننا نلاحظ اليوم كيف يواكب المنبر الحسيني نهضة العصر الحديثة، وكيف ترقى أداء المجلس بالشكل الواضح، بعد الإنفتاح على العلوم العصرية، فدوره اليوم دور المصلح والناقد والمقارن والمقتبس، وهو حالياً يعتمد على جميع العلوم الإنسانية.

ويتعرض الخطيب اليوم إلى مختلف حقول الفكر المتداولة في ميادين العلم على اختلاف المشارب، ويمكننا أن نقول أن مادة المجلس الحسيني اليوم هي العلم، ويُعالج الخطيب الحسيني مختلف القضايا العلمية والفكرية والاجتماعية والسياسية والتربوية والأخلاقية، إلى جانب الدينية والعقائدية، بكل حرية وانفتاح، فغالباً ما يكون ذلك على ضوء آية قرآنية، أو حديث نبوي، أو كلمة من كلمات العترة الطاهرة، أو حتى بيت من أبيات الشعر، وربما مثل سائر.

ويتمّ عرض البحوث المختلفة على ضوء النصّ المصدر بحسب سعة إطلاع الخطيب، وبحسب جهده في تتبّع المعلومات والبحوث، وقد ظهرت كتب قيمة في هذا العصر تحتوي نتاج جهد عدّة من الخطباء المبرزين، وهي متوفرة في المكتبات بشكل كبير، على مستوى الخطابة العربية والفارسية.. إلا أن أهم الكتب التي ألفت في هذا الصدد فيما أعلم هي من تأليفات العلامة الخطيب الشيخ محمد تقي الفلسفي رحمته، وقد دُوّنت عن محاضراته الفارسية وترجمت إلى العربية من بعد

ذلك ، وفيها يعالج قضايا فكرية وتربوية واجتماعية بشكل باعث للفخر ، فهو يجمع بين الثقافة الدينية والثقافات الأخرى..

وقد برزت مجموعة مشرفة من خطباء المنبر الحسيني من العرب الذين كتبوا نتاج تجربتهم وصارة عطائهم المنبري ، رثاءً وفكراً ، وأرى على أرفف المكتبة الشيعية اليوم كثيراً من المطبوعات الصادرة بغرض جمع تراث بعض الراحلين منهم ، كالمرحوم الشيخ عبدالوهاب الكاشي رحمته أو المرحوم الشيخ هادي الكربلائي رحمته أو المرحوم الشيخ أحمد الوائلي رحمته.. وهذا بابٌ يؤدّي بنا إلى بحرٍ لا نهاية له ويتعسّر استقصاؤه..

وفي عصرنا الحاضر.. تربّع المرحوم الشيخ أحمد الوائلي رحمته على عرش الخطابة الحسينية العربية ، وكان المثال المحتذى والقُدوة للخطباء على مدى جيلين ، إلاّ أنّه لم يخلف مؤلفاً في هذا الباب ، ولم تُطبع محاضراته القيمة تحت نظره كما طُبعت محاضرات الآخرين ، وطُبعت له مجموعة من محاضراته بعد وفاته مبيضةً من تسجيلاته الباقية ، ولو كانت قد دُوّنت في حياته كان لها صدىً آخر..

هذا.. وتعتبر المجالس الحسينية اليوم القناة الأهم والأقوى للشيعه الإمامية بالدرجة الأولى.. وتعدّ الوسيلة المثلى لفقه الدعوة الحسينية وإيضاح أبعادها وشرح جذورها ، وينطوي في ذلك التعريف بالإسلام وتعاليمه وكلّ خصوصياته وأبعاده ، كما أنّها سبيل المحافظة على الرابطة القويّة بين المؤمنين وأهل البيت عليهم ، ولا زالت تطبع على نفوس عامّة الناس والمقيمين لها والحاضرين فيها أقوى الإنطباعات الدينية والتربوية الخاصة..

حتى أصبحت مجالس الإمام الحسين عليه شيئاً فشيئاً متديّات للعلم

والفكر الأصيل، وجامعات للفقهِ الإسلامي، ومعاهد للفكر الديني، ومنبراً للرأي الحر، ومراكز للتأهيل التربوي والمتابعة الروحية، وضمان الأمان والإستقرار وحياة المؤمنين وسلامتهم المعنوية والروحية والنفسيّة.

ويتداول فيها الخطباء الأكفء القرآن والتاريخ والشعر والأدب، ومختلف العلوم الإنسانيّة، ويُعالج فيها مختلف القضايا الدينيّة والفكرية، وهي التي تبعث النفوس إلى التمسك بالعزّة والإباء، وتضمن الأمن والأمان في محيطها، وتبارك ساحتها، وتعزّز الضمير الخيّر المتدينّ المحبّ للمعروف المبعوض للمنكر.

ولا بدّ أن ينتهي مطاف كلّ مجلس بالثناء، ومسك ختامه ذكر الإمام الحسين عليه السلام، الأمر الذي يضمن روحها وعنفوانها ويمدّها بأسرار الحياة والبقاء.

ويضمّ المجلس الحسيني اليوم مختلف الفوائد والعلوم الإنسانيّة، ويجمع في مادّته تفسير القرآن الكريم، إلى جنب الفقه والشريعة وعلوم الكلام والفلسفة، والتاريخ والأدب والشعر وغير ذلك، ولا أبالغ حينئذ إذا قلت أن المجالس الحسينيّة اليوم تعدّ موسوعة الإسلام الخالص، السّهلة المنال، والمتاحة في كلّ أقطار الإسلام وعلى مدار أيام السنّة.

ويُنصب هذا الشّعار المقدّس لإحياء أحزان العترة النبويّة وأفراحهم على حدّ سواء، فتقام المجالس والمحافل في مواليد الأئمة ووفياتهم عليهم السلام، وتكرّر إقامة المجالس الحسينيّة - كذلك - في مناسبات تأبين الشّخصيّات وفي مجالس الفاتحة.

وثُحيى فيها المناسبات التاريخيّة على مدى أيام السنّة، كالغزوات النبويّة والأحداث المهمّة التي تصدّرت تاريخنا، ولقد لبّى الشيعة رغبة أئمتهم عليهم السلام فأقاموا المجالس في بيوتهم على مدى أيام السنّة، فأغلب البيوتات الشيعيّة والأسر

الكبيرة لها يوم في الأسبوع تتصل فيه بذكر الإمام الحسين عليه السلام وتحيي فيه أقرب المناسبات بحسب التاريخ، وهو عملٌ نصّ عليه أهل البيت عليهم السلام حينما حثوا على التلاقي بالبيوت وإحياء أمرهم عليهم السلام، فاعتادت الشيعة أن تفتتح البيوت الجديدة بمجلس حسيني للبركة، وتذكر الإمام الحسين عليه السلام في شهادة كل إمام من أهل البيت عليهم السلام، وتمثل هذه المجالس الدوافع المهمة لنشر الإسلام والفكر النبوي وتثبيت خط أهل البيت عليهم السلام وترسيخه في النفوس.

هذا، ويتألق أداء المجالس الحسينية ويتجلّى في أيام عاشوراء من شهر المحرم، وأعني بها العشرة الأولى منه، وقيم الشيعة المجالس المنظمة والمعد لها سلفاً، حيث جوهر المصيبة والحزن والرثاء، وفيها يتنافس المحبون والموالون على نشر ظلامة أهل البيت عليهم السلام والدعوة إليهم، ويشترك في هذه المجالس - كما هو الحال في بلدنا - عامة المسلمين من غير فرق بين مذاهبهم.

وثمره هذه المجالس ظاهرة على فكر مرتاديها، فحصيلتهم العلمية والثقافية في نماء وتطور، ولقد كنت ألقى بدكتور مصري يحضر في بعض مجالس الكويت، وكان يقول لبعض الشيعة: أنتم لا تعرفون قدر هذه المجالس!! إنها جامعات كبرى مباركة، تُلقى فيها محاضرات مجّانية في الدين والتاريخ والعلم والأدب، وهي مملوءة بالخير والبركة.. وكان يقول لي إذا أوشك موسم المجالس الراتبية على النهاية في آخر صفر: سنضيع بعد صفر!!

ومن الطريف أنّ الشيعة بكلّ مستوياتهم الدنيّة والفكرية يحضرون مجالس الإمام الحسين عليه السلام وخصوصاً في العشرة الأولى من المحرم، حتّى هؤلاء الذين لا يُعرفون بالتزام ديني أصلاً، وعادة ما يسوقهم حضورهم إلى الدين والهداية،

ولقد حدثني صديق عن طالب شيعي مشاكس في الجامعة، وله حظٌ وفير من المعلومات، وكان يناقش أستاذه دائماً ويُحرجه بالإشكالات، فالتفت أستاذه الدكتور إليه يوماً وقال له: عندي سؤال يحيرني كثيراً!!
 فقال الطالب: ما هو؟ فقال: تُعجبني سعة اطلاعك في العلوم الدينية والتاريخية، ويعجبني أنك لست من أهل المطالعة والقراءة، فمن أين تأتيني بكل هذه المعلومات!! فتبسّم الطالب وردّ عليه: أنا شيعي، وإنّ عندنا مدرسة نلتزم بحضورها في أيام عاشوراء، وفيها نتعلّم كل شيء!!

دعوة تجديد المجلس الحسيني

قطعت المجالس الحسينية مراحل الإنشاء والتأسيس بشكل تدريجي مدروس، حتى اجتازت بنجاح كبير مرحلة الفتوة والصبا إلى البلوغ والرشد، وقد حصّنها الأئمة عليهم السلام بمنهجيتهم عن السقوط في داء الشيخوخة كبقية المؤسسات الأخرى.. إذ عدّ البعض الشيخوخة أشد المراحل خطراً وتهديداً على المؤسسات، وتندر إذا ما حلّت بها بالجمود والموت البطيء، وتترشّح المناهج الفكرية للإصابة بهذا الداء بسبب التخلّي عن أدوات التحديث للمنهج وأساليبه وأهدافه، والركائز الضامنة لدوام فتوتها ومثانتها.

لكنّ البعض توهم احتمال تعرّض المجالس الحسينية لهذا الخطر، وكان ذلك محلّ الكلام في السنين الأخيرة، ممّا حدى ببعض الأفواه أن ترتفع أصواتها معلنة مطالب التحديث والتجديد تبعاً لعولمة العالم الإسلامي عموماً، بعد تسلّط المد الجارف المكتسح لهوية الأمم والشعوب، ولا شكّ أنّه

ينبغي تجديد أداة الإعلام الدينيّة، لا من باب شيخوختها، وإنّما من باب عرض قضايانا بلسان العصر.

وينبغي التسليم بأنّ المجالس الحسينيّة اليوم تواجه غول الإعلام العالمي بدعاياته ومناهجه وتقنياته، إذ توظّف العولمة المعاصرة أدق الأدوات تأثيراً في إجراء عملية مسخ هويّة الأمة بتوجيه سلاح الإعلام ضد ديننا وفكرنا وأخلاقنا، في حال غفلة المسلمين والمؤمنين وانشغالهم بالتوافه والسفاسف.

ولابدّ للأمة أن تنهض بأعباء رسالتها في هذا الظرف الدقيق، شاحذة الهمم لامتصاص الضربات ومواجهة الإعلام واكتساحه بالفكر الديني الأصيل، ويتعيّن عليها في هذه المرحلة الحساسة أن تمتاز بقوة التّحديث في مؤسّساتها الإعلاميّة، ومن أهمّها المجالس الحسينيّة، لتؤدّي دورها بثبات ورسوخ في وجه أعاصير العولمة العاتية.

إنّ الآمال معقودة على المجالس الحسينيّة في صيانة الهوية الإسلاميّة وتحصينها من الغزو العالمي، والآمال في محلّها قطعاً، وأصبحت الحاجة ملحة لاستغلال جميع قدرات الجيل الحاضر وطاقاته العلميّة والفنية والمالية للتّهوض بأداء المنبر الحسيني، بصورة يتمكّن من الإبحار بالجيل الحاضر في عباب بحر التّحديات والتّهديدات التي تستهدف تراثنا وفكرنا وهويتنا الإسلاميّة.

وأعتقد أنّ التّحديث المطلوب يقوم على أساس الموازنة بين الأصالة والحداثة، ولا بدّ من تشخيص معالم أصالة المجلس الحسيني قبل كلّ شيء، لضمان سلامة صيانته من العبث، فهو شعارٌ دينيٌّ مقدّس، وهذا فوق كلّ اعتبار، فيتعيّن تحديث أساليب إعلامه الفنيّة والتقنيّة والعلميّة كي يظهر بمظهر

العصر دون المساس بإطاره العام، وبهذا يمكن حماية التراث الضخم الذي حققه في مسيرته الطويلة، ويمكن صيانة رصيده الكبير بأمانة ونزاهة.

ولابد من تأصيل أن المؤسسة الحسينية هي مؤسسة الإسلام، وثورة الإمام الحسين عليه السلام هي شعار كل مسلم موحد، وهي نهضة تجسد الإسلام بكل معانيه وكافة أبعاده ونواحيه، وتمثل كل جوانبه الأخلاقية والاجتماعية مضافاً إلى الموعظة والحكمة والتوحيد والعرفان والعقيدة، ممثلة في الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه البررة وأهل بيته عليه السلام، فهم أسوة المجتمع الإسلامي عبر الأجيال، مروراً بالطفل الرضيع وانتهاءً بالشيخ الكبير، والمرأة العجوز.

إن إبراز هذه الصلة الوثيقة بين الإسلام المحمدي والنهضة الحسينية من خلال قناة النهضة الإعلامية لهو من أهم الوظائف المتعينة، وهو الدور الأصيل للمجالس والخطابة الحسينية، ويتطلب تأصيل ذلك إحاطة شاملة من وجهي دقة هذه المجالس، وإدراكاً عميقاً لفكر الإسلام المنقول والمعقول، ودراية تامة لتاريخ وخصوصيات النهضة، مع الإطلاع على أحداث العصر وعلومه، والخبرة المعمقة بطبقات المجتمع وأطباعه وعاداته ومستواه الفكري والروحي، وهذه الفقرات هي العناوين الأولى التي تصوغ مؤهلات وكفاءة الخطيب الحسيني.

والأصل الأصيل في المنبر الحسيني أن النهضة الحسينية قد امتزجت وتداخلت بالرتاء والحزن والبكاء، فهما نسيجان متداخلان، وتكمن في ذلك أهمية البعد العاطفي الذي يحتل الصدارة، وهو قسيم البعد الفكري والديني، وقد حرص أهل البيت عليه السلام على إرساء هذا البعد الأصيل عبر العشرات من أحاديث الحث على الرثاء والحزن والبكاء، وقد مرّت بنا طائفة من أحاديثهم

عليه في هذا الخصوص.

وتمكن أهل البيت عليه بمنهج محكم دقيق من ضمان دوام حرارة يوم الطف الخالد من خلال توظيف أقوى العواطف الإنسانية أثراً في لفت الانتباه وإثارة فضول الغير نحو هذه الظلامة الصارخة.

لقد أعمل الأئمة الأبرار عليه سلاح العاطفة الإنسانية في إنضاج الوعي الفكري وصقله، واستثمروا الدور الوجداني العاطفي للحزن والبكاء للتأثير على توجيه التفكير إلى الحق والحقيقة، ووظفوا البكاء والحزن لضمان دوام الوجدان الواعي.

فالتحديث والتجديد قائمان على تأصيل الأصالة بلغة العصر، والإحتفاظ بالإطار العام للخطابة الحسينية كما صاغه الأئمة عليه، وبتصور ذلك نظرياً بانتقاء طبيعة المواضيع المتناولة في مجالس الإمام الحسين عليه عبر تخصص الخطاب في إحدى حقول العلم، والسعي إلى الموسوعية والإلمام بمختلف المعارف والعلوم، وبذلك يكون للمستمعين الدور في الإختيار لنوعية المادة بحسب الذوق والرغبة والحاجة.

ولابد من تطوير الجانب الفني للخطيب بصقل مهاراته وأساليبه في البيان، ليسيطر على ضبط إيصال الفكرة، ويحكم إتقان فنون الرثاء وطرق الإنشاد، ولا بد أن يتقن أساليب الخطابة بالإستفادة من العلوم ذات الصلة بالخطابة، فالرثاء الشجي المؤثر يعتمد على ثقافة النغم والإيقاع والمقامات وألحان الحزن، وهذه علوم قائمة بذاتها وتعد من صلب اهتمام الخطيب الرائي.

ويمكن تحديث قناة الإعلام الحسينية بتوظيف وسائل الإعلام لبث ونشر

المجالس وإيصال صوت المنبر إلى أقصى نقطة ممكنة على سطح الأرض بكلّ اللغات، وما من شكّ في أنّ المنبر الحسيني يستطيع تحقيق الكثير في سبيل نشر الإسلام والمعارف الدينيّة رغم صياغته التقليديّة، ولا بدّ حينئذ من إمام الخطيب بعلم الإتصال الجماهيري ليترقّى بأساليبه الخطابية ويرفع من مستوى أدائها لمجابهة الهجمة الثقافية الشرسة التي يشهدها عالمنا الإسلامي اليوم.

والهدف من ذلك هو توسيع دائرة المخاطبين بالخطاب الحسيني، وإيصال صوت الظلام الصّارخة إلى أقصى حدّ ممكن، وتعدّي نطاق الموالين والتابعين لمدرسة أهل البيت عليهم السلام إلى باقي المسلمين وغيرهم، بشكل فاعل يرتفع إلى مستوى المنافسة القويّة لوسائل الإعلام المعاصرة والمصادر الثقافية المختلفة التي تحدّد طبيعة الزاد الثقافي وعمقه للجيل الحاضر.

وأقول أخيراً: إن توسيع دائرة المستمعين والمستفيدين من المنبر الحسيني أمرٌ تعترضه كثير من العقبات والصّعوبات، وليس بالأمر السّهل قطعاً، إلاّ أن تحقيق ذلك يمكن من خلال التّخطيط المتقن والإعداد الجيّد مع حُسن الإختيار للوسائل الفاعلة والناجحة.

بين التجديد والتنزيه

تجديد المجالس الحسينيّة وتحديثها ضرورة ملحّة، وتجديدها عبر العصور وبلوغها هذه الصّورة الحاليّة يؤكّد لزوم تحديثها وتجديدها، إلاّ أنّه قد يُطلق شعار التّجديد ويُراد به معنى محضور، إذ تتعالى أصوات المنادين بتجديدها من القرباء والغرباء، من بعض العلماء وغيرهم، والمتقّفين وغيرهم، ولكلّ من هؤلاء وجهة

نظر، وتتوالى مطالب تطوير المنبر وأساليب طرحه. فالتطوير والتجديد في المنهجية والأسلوب والطرح مطلبان مهمان كما مرّ، ولا يُنكر ذلك إلا مكابر، ولا أحسبني سألّم بالموضوع من كل جوانبه لتشعب الكلام وطوله فيه، وحرّي أن يُعالج وأمثاله في كتاب مستقل على يد المختصين، إلا أنني سأتناوله بالقدر الميسور.

فيمكن أن نتقبّل بشكل إيجابي جداً النقد الإيجابي الذي يقوم عمل هذه المؤسسة ويدفع عجلتها للحركة المثمرة، والذي ينطلق من الدوافع الطيبة ويهدف إلى تقوية أداء المنبر، ويرمي إلى زيادة تأهيله لحمل صوت الإمام الحسين عليه السلام بكلّ صفاء ونقاء، بصورة متناغمة مع ثورته الكبرى، ومتماشية مع أهدافه وغاياته، وغالباً ما يأخذ هذا النقد السليم طابع النقد الذاتي ويتسم بسمة الإصلاح الداخلي، وهو أمرٌ حسنٌ ومهمٌ في حدّ ذاته.

ولا أرى أنّ من الحكمة أن نحفل بنقد غير أهل العلم والتقوى والدّوق السليم ونعيرهم أسماعنا فيما يخصّ التجديد والتحديث في هذه القضية الحساسة، فقد تطوّر أداء المنبر بشكل طبيعيٍّ ومميّز من عصور الأئمة الطاهرين عليهم السلام إلى عصرنا الحاضر، وبذروا عليهم السلام نواة المجالس بشكل يؤهلها إلى بلوغ هذا التضخّم المعاصر، ولا أشكّ لحظة في أنّ عنايات مولانا صاحب الأمر والزمان عليهم السلام الربانية وراء صمود الشعائر الحسينية وقوتها، وليس بقاء البكاء على سيّد الشهداء عليهم السلام بهذا الشكل إلاّ من المعاجز التي تدعونا إلى التفكّر في حالات أولياء الله تعالى عليهم السلام، فهي محفوفة وقائمة بعنايات الإمام عليهم السلام، وهي سالمة من الشوائب ببركته، وبجهود نوابه العلماء الأتقياء المؤهلين لحمل أعباء الدّعوة في زمان غيبته عليهم السلام.

وقد تصدّى علماء أتقياء حسيّون منذ بداية تأريخ المنبر الحسيني وبروز ظاهرة المجالس إلى تنبيه الخواص والعوام على نقاط الخلل والثغرات التي تتنافى وشأن صاحب المجلس عليه السلام والأخطاء العلميّة أو الفكريّة المهمّة التي لا يمكن الإغضاء عنها، ولكن.. ليس من باب إصلاح المنبر الحسيني وتجديده !! ولكن من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المفضيان إلى إصلاح كلّ العبادات من الخلل، والمجالس الحسينية واحدة من تلك العبادات التي تحتاج إلى رقابة العلماء الأتقياء كسائر العبادات الأخرى.

ومكمن نقطة الضّعف فيما يبدو لي في تفاوت مستويات خطباء المجالس الحسينية، ممّا يضعّف من مستوى الأداء والعرض، ويرجع السبب في ذلك إلى تنحيّ العلماء المؤهلين عن القيام بثقل هذه الأمانة، وتفريغ الأمكنة لمن لا يرقى للمستوى اللائق بحملها، وفي الكلام غصّة وغصّة، ولقد عملت التيارات والروافد عملها الدؤوب وكرّست طاقاتها في تثبيت الكثير وتجاهل الكثير، وعمل البعض على فرض واقع بالطرق الملتوية، لكن الأمر للحسين عليه السلام وفي يده تُدار دفة توفيق الخدمة قطعاً، وهو مرآة عناية الله ولطفه..

إذ ينبغي تنزيه المجالس الحسينية من الأغراض الشخصيّة وإن سمّوها مصالح إسلاميّة أو ضرورات مذهبيّة، بحسب ما تقتضيه الأهواء والتوجّهات، وكان ينبغي لدعاة الإصلاح أن يُعملوا جهودهم في هذا السبيل، لا أن يوجّهوا سهام نقدهم إلى مادّة المجالس ممّا يسبّب وهن وضعف الأداء والقبول.

مصادر حادثة الطف

لا تستغني عبادة دينية ولا طقس عقائدي عن الرقابة الذاتية في أي حال، فالعزاء الحسيني بكل شعائره عهدة أدى أمانتها نُخبُ الآباء إلينا جيلاً بعد جيل، وقد ساقها الماضون إلى جيلنا بأبدع تنظيم، كما أننا نتعهد تنظيمها بأحسن وجه كي نسوقها لمن يأتي بعدنا، وهي عهدة ننظم شؤونها كما أننا نراقب مسيرتها تماماً، وبالرقابة الذاتية نصونها من الشوائب التي تكدر صفوها.

ويقف العلماء الأبرار بإرشاداتهم وراء مسيرة الشعائر الحسينية في كل جيل، وكلنا في حاجة ماسة إليهم في العصر الحاضر لتصحيح أي ميل عن الجادة القويمية. فالشعائر الحسينية عموماً والمجالس منها خصوصاً عرضة للشوائب التي تعكّر صفوها، تماماً كأكثر العبادات التي تلبس هذا الطابع، وإن عبادة مثل المجالس بهذه الكثرة والإنتشار وتنوع الرواد واختلاف مستوى الخطباء والرثاء والروايد لا تخلو من ظواهر قد تحرك المنتقدين، خصوصاً هؤلاء المتصيدين الذين لا يرضون عنها حتى إذا خلت مما يُشين، وكم ظاهرة يُنكرها المسلمون يواجهونها في عبادة كعبادة الحج مثلاً، وكم تحتاج هذه العبادة إلى تعهدهم ومراقبتهم بشكل دقيق.

ولقد تصدّى جملة من العلماء لتنزيه شعيرة المجلس الحسيني قديماً وحديثاً، وأثروا مادة البحوث بالكتب والأمالى على مدى تاريخ الطائفة، فجزاهم الله عن الإمام الحسين عليه السلام خير الجزاء، فلو لا كتابات الفقهاء في باب التفسير والحديث والفقهاء والعقائد والسير لضاع علينا الكثير من تراثنا القيم، ولو لا تصدّى رموز الطائفة وأعلامها لكتابة قصة مقتل الإمام الحسين عليه السلام وتحرير البحوث المترتبة

عليها والتحقيق في تفاصيلها لعمّ علينا.

ومن هذا المنطلق فإنه ينبغي صيانة المنبر الحسيني بالالتزام بالكتب المعتمدة، ففي متابعتها تتحصّن أسوار المجالس الحسينية من دخول الخرافة والكذبة إلى حدّ كبير، وتتوفّر اليوم كتبٌ معاصرة ومهمّة تمّ التحقيق فيها وألّمت بالحادثة من جميع أبعادها، منها كتاب مقتل الحسين عليه السلام للمرحوم العلامة السيّد عبد الرزاق المقرّم رحمه الله وهو من أمتن الكتب في هذا الباب، وكتاب نفس المهموم للمحدّث الخبير الشيخ عباس القمي رحمه الله، وكتاب مقتل الحسين عليه السلام لآية الله السيّد محمد تقي بحر العلوم رحمه الله، وكتاب إكسير العبادات في أسرار الشّهادات، المعروف بأسرار الشّهادة^(١) للفقير الفاضل المرحوم الدرّبندي رحمه الله، مضافاً إلى مجاميع معروفة، وأكثرها تعتمد في النقل عن الأصول المعتمدة.

وإنّ أهم وأقدم كتاب متاح صدر عن علمائنا رصد فيه قصّة مقتل الإمام الحسين عليه السلام هو كتاب الملهوف على قتلى الطفوف للسيّد رضيّ الدين أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس رحمه الله، ولقد كتبه بعد وفرة من الكتب التي تناولت قصّة المقتل، ولم يبق منها اليوم غير الاسم، فبعضها أُلّف وبعضها حُرق وبعضها سُرق، ولم يصل منها إلّا الشّيء القليل، إلى جانب الكتب التاريخية المعروفة التي تعتبر من أهم مصادر المقتل في النقل.

ويمكن رصد أهمّ الكتب المكتوبة في قصّة مقتل الإمام الحسين عليه السلام قبل

(١) طُبِعَ كتاب إكسير العبادات للفقير الفاضل الدرّبندي في ثلاثة مجلّدات بتحقيقنا بالإشتراك مع الشيخ عباس ملاّ عطية الجمري قبل سنوات في بيروت وإيران، ويشغلني منذ سنوات مشروع صياغته الجديدة، سمّيتها "أسرار الشّهادة" أعرض فيها استفاداتي من الكتاب.

كتاب السيّد ابن طاووس رحمته الله المتوفّى سنة ٦٦٤ هـ، وهي بحسب المؤلّفين :

(١) أبو القاسم الأصبغ بن نباته المجاشعي التميمي الحنظلي.

وهو من خاصّة أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ومن شرطة الخميس، عمّر بعد علي عليه السلام طويلاً، توفي بعد المائة، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام، واستظهر بعض المحقّقين أنه أوّل من كتب مقتل الحسين عليه السلام، والله أعلم^(١).

(٢) أبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سالم الأزدي

الغامدي.

وهو شيخ أصحاب الأخبار بالكوفة ووجههم، روى عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام، وقيل: إنه روى عن أبي جعفر عليه السلام، ولم يصحّ. وزعم الكشي أنه من أصحاب أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام، والصحيح أن أباه كان من أصحاب علي عليه السلام، وهو لم يلقه. له كتاب مقتل الحسين عليه السلام.

ولم يشهد واقعة الطف، لكنّه ألفه سماعاً من نقلة الأخبار وأهل الكوفة، والظاهر أنّ كتاب مقتل الحسين عليه السلام الذي طبع مؤخراً منسوباً إلى أبي مخنف ليس له قطعاً، ويرجح كونه لبعض من تأخر عنه، واحتمل بعض المحقّقين أنه للسيد ابن طاووس، أخذه من مقتل أبي مخنف وزاد عليه ونقص، ولم يصل إلينا من مقتل أبي مخنف سوى ما نقله الطبري في تاريخه عنه^(٢).

(١) راجع مقدّمة كتاب الملهوف على قتلى الطفوف بتحقيق الشّيخ فارس الحسون، وفيه يذكر أسماء المقاتل ص (٣٣). وراجع الفهرست ص (٣٧ - ٣٨) رقم (١٠٨)، والذريعة (٢٢/٢٣ - ٢٤) رقم (٥٨٣٨).

(٢) راجع رجال النجاشي ص (٣٢٠) رقم (٨٧٥)، والفهرست (١٢٩) رقم (٥٧٣)، والمعالم:

(٣) أبو أحمد عبد العزيز بن يحيى بن أحمد بن عيسى الجلودي.

وهو من أصحاب أبي جعفر عليه السلام ، وشيخ جعفر بن قولويه. وله كتاب مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام^(١).

(٤) أبو عبدالله - أبو محمد - جابر بن يزيد الجعفي.

وهو عربي قديم، لقي أبا جعفر الباقر وأبا عبد الله الصادق عليهما السلام ومات في أيامه سنة (١٢٨) هـ، وله كتاب مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام^(٢).

(٥) عبدالله بن أحمد - محمد - بن أبي الدنيا.

وهو عامي المذهب، وله كتب كثيرة، توفي سنة (٢٨١) هـ، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام^(٣).

(٦) أبو الفضل سلمة بن الخطاب البراوستاني الأزدورقاني.

وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام^(٤).

(٧) أبو الحسن علي بن محمد المدائني.

→ (٩٣ - ٩٤) رقم (٦٤٩)، والذريعة (٢٧/٢٢) رقم (٥٨٥٩).

(١) راجع رجال النجاشي ص (٢٤٠ - ٢٤٤) رقم (٦٤٠)، والذريعة (٢٥/٢٢) رقم (٥٨٥١).

(٢) راجع رجال النجاشي ص (١٢٨) رقم (٣٣٢)، والذريعة (٢٤/٢٢) رقم (٥٨٤٠).

(٣) راجع الفهرست ص (١٠٤) رقم (٤٣٨)، والمعالم ص (٧٦) رقم (٥٠٦)، وسير أعلام النبلاء (٤٠٣/١٣).

(٤) راجع رجال النجاشي ص (١٨٧) رقم (٤٩٨)، والفهرست ص (٧٩) رقم (٣٢٤)، والمعالم ص (٥٧) رقم (٣٧٨)، والذريعة (٢٥/٢٢) رقم (٥٨٤٧).

وهو عامي المذهب، كتبه حسنة، توفي سنة (٢٢٤) هـ، له كتاب مقتل الحسين عليه السلام، أو سيره في مقتل الحسين^(١).

(٨) أبو زيد عمارة بن زيد الخيواني الهمداني.

وله كتاب مقتل الحسين بن علي عليه السلام^(٢).

(٩) أحمد بن عبد الله البكري.

وله كتاب مقتل أبي عبدالله الحسين عليه السلام، وتوجد نسخة منه في مكتبة جامعة القرويين في مدينة فاس بالمغرب ضمن المجموعة رقم (٥٧٥/٣) باسم: حديث وفاة سيدنا الحسين^(٣).

(١٠) أبو جعفر محمد بن أحمد بن يحيى بن عمران بن عبد الله بن سعد بن

مالك الأشعري القمي.

وهو المعروف بدبة شبيب، وله كتاب مقتل أبي عبدالله الحسين عليه السلام^(٤).

(١١) أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي.

وله كتاب مقتل أبي عبدالله الحسين عليه السلام، ويروي عنه السيد ابن طاووس في

كتاب الملهوف، توفي سنة (٢١٠) هـ^(٥).

(١) راجع الفهرست ص (٩٥) رقم (٣٩٥)، والمعالم ص (٧٢) رقم (٤٨٦).

(٢) راجع رجال النجاشي ص (٣٠٣) رقم (٨٢٧)، الذريعة (٢٦/٢٢) رقم (٥٨٥٥).

(٣) راجع مقدمة كتاب الملهوف للشيخ فارس الحسون ص (٣٥).

(٤) راجع رجال النجاشي ص (٣٤٨ - ٣٤٩) رقم (٩٣٩)، والذريعة (٢٧/٢٢) رقم (٥٨٦١).

(٥) راجع الذريعة (٢٨/٢٢) رقم (٥٨٧٣).

(١٢) هشام بن محمد بن السائب بن بشر بن زيد.

وهو العالم بالأيام، والمشهور بالفضل والعلم، وكان يختصّ بمذهبنا، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام^(١).

(١٣) أبو المفضل نصر بن مزاحم المنقري العطار.

وهو كوفي مستقيم الطريقة، توفي سنة (٢١٢) هـ، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام^(٢).

(١٤) أبو عبدالله محمد بن عمر الواقدي المدني البغدادي.

وهو صاحب كتاب الآداب، وتوفي سنة (٢٠٧) هـ، وله كتاب مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام^(٣).

(١٥) أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي.

وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام^(٤).

(١٦) محمد بن علي بن الفضل بن تمام بن سكين.

(١) راجع رجال النجاشي ص (٤٣٤ - ٤٣٥) رقم (١١٦٦).

(٢) راجع رجال النجاشي ص (٤٢٧ - ٤٢٨) رقم (١١٤٨)، والفهرست ص (١٧١ - ١٨٢) رقم (٧٥١)، والمعالم ص (١٢٦) رقم (٨٥١)، والذريعة (٢٢/٢٩) رقم (٥٨٧٤)، والفهرست لابن النديم ص (١٠٦).

(٣) راجع الذريعة (٢٢/٢٨) رقم (٥٨٦٩)، والفهرست لابن النديم ص (١١١)، والوفيات (٤/٢٣٨).

(٤) راجع الفهرست ص (١٥٦ - ١٥٧) رقم (٦٩٥)، والمعالم ص (١١١ - ١١٢) رقم (٧٦٤)، والذريعة (٢٢/٢٨) رقم (٥٨٦٧).

وهو شيخ ابن الغضائري، وفي طبقة الشيخ الصدوق، وكان ثقة عيناً صحيح الاعتقاد، جيد التصنيف، وله كتاب مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام^(١).

(١٧) أبو عبدالله محمد بن زكريا بن دينار الغلابي.

وهو مولى بني غلا، وكان وجهاً من وجوه أصحابنا بالبصرة، توفي سنة (٢٩٨) هـ، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام^(٢).

(١٨) أبو جعفر محمد بن يحيى الطيار القمي.

وهو شيخ أصحابنا في زمانه، وهو ثقة عين كثير الحديث، وله مقتل الحسين عليه السلام^(٣).

(١٩) ابن واضح يعقوبي أحمد بن إسحاق.

وهو الأخباري الشهير، صاحب تاريخ يعقوبي، المتوفي بعد سنة (٢٩٢) هـ أو سنة (٢٨٤) هـ، وهو متأخر عن أبي مخنف، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام^(٤).

(٢٠) أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الأحمر النهاوندي.

وهو متهم، وكتبه سداد، سمع منه القاسم بن محمد الهمداني سنة (٢٦٩) هـ، وله كتاب مقتل الحسين بن علي عليه السلام^(٥).

(١) راجع رجال النجاشي ص (٣٨٥) رقم (١٠٤٦)، والذريعة (٢٨/٢٢) رقم (٥٨٦٨).

(٢) راجع رجال النجاشي ص (٣٤٦ - ٣٤٧) رقم (٩٦٣)، والفهرست لابن النديم ص (١٢١).

(٣) راجع رجال النجاشي ص (٣٥٣) رقم (٩٤٦).

(٤) راجع الذريعة (٢٣/٢٢) رقم (٥٨٣٣).

(٥) راجع الفهرست ص (٧) رقم (٩)، والمعالم ص (٧) رقم (٢٧)، ورجال النجاشي ص (١٩)

رقم (٢١)، والذريعة (٢٣/٢٢) رقم (٥٨٣٤).

(٢١) إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال بن عاصم بن سعد بن مسعود

الثقفي.

وأصله كوفي، وسكن اصفهان، وكان زيدياً ثم انتقل إلينا، ومات سنة

(٢٨٣) هـ، وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام^(١).

(٢٢) أبو الحسين الشافعي.

وهو صاحب المفيد في الحديث، ويروي عنه النجاشي بتوسط شيخه أحمد

بن عبد الواحد بن عبدون، وله كتاب المقتل^(٢).

(٢٣) ابن شهر آشوب

ينقل عنه أبو جعفر أمير الحاج الحسيني في شرح الشافية، وله كتاب المقتل^(٣).

(٢٤) محمد بن الحسن بن علي الطوسي.

وله كتاب مقتل الحسين عليه السلام^(٤).

(٢٥) نجم الدين جعفر بن نجيب الدين محمد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله

بن نما الحلبي.

وهو من علمائنا المعروفين، المتوفى سنة (٦٤٥) هـ، وله كتاب مثير الأحران

(١) راجع الفهرست ص (٤ - ٥) رقم (٧)، والمعالم ص (٣) رقم (١)، ورجال النجاشي ص

(١٦ - ١٧) رقم (١٩)، والذريعة (٢٢/٢٣) رقم (٥٨٣٥).

(٢) راجع الذريعة (٢٢/٢١ - ٢٢) رقم (٥٨٢٥).

(٣) راجع الذريعة (٢٢/٢٢) رقم (٥٨٢٧).

(٤) راجع الفهرست ص (١٥٩ - ١٦١) رقم (٦٩٩)، والمعالم ص (١١٤ - ١١٥) رقم (٧٦٦)،

والذريعة (٢٢/٢٧) رقم (٥٨٦٣).

ومنير سبل الأشجان، في المقتل^(١).

(٢٦) أبو عبيد القاسم بن سلار - سلام - الهروي.

توفي سنة (٢٢٤) هـ، وله كتاب مقتل الحسين عليهما السلام^(٢).

(٢٧) عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي.

توفي سنة (٣١٧) هـ، وله كتاب مقتل الحسين عليهما السلام^(٣).

(٢٨) عمر بن الحسين بن علي بن مالك الشيباني.

توفي سنة (٣٣٩) هـ، وله كتاب مقتل الحسين بن علي عليهما السلام^(٤).

(٢٩) ضياء الدين أبو المؤيد الموفق بن أحمد الخوارزمي.

وهو من علماء العامة، توفي سنة (٥٦٨) هـ، وله كتاب مقتل الحسين، كبير

في جزأين، وهو مطبوع.

(٣٠) أبو القاسم محمود بن المبارك الواسطي.

توفي سنة (٥٩٢) هـ، وله كتاب مقتل الحسين عليهما السلام^(٥).

(٣١) عز الدين عبد الرزاق الجزري.

توفي سنة (٦٦١) هـ، وله كتاب مقتل الشهيد الحسين عليهما السلام.

(٣٢) سليمان بن أحمد الطبراني.

(١) راجع الذريعة (٣٤٩/١٩) رقم (١٥٥٩)، و (٢٢/٢٢).

(٢) راجع التحبير للذهبي (١/١٨٥).

(٣) راجع كشف الظنون (٢/١٧٩٤).

(٤) راجع معجم المؤلفين (٧/٢٨٢).

(٥) راجع إيضاح المكنون (٢/٥٤٠).

توفي سنة (٣٦٠) هـ، وله كتاب مقتل الحسين^(١).

ويأتي بعدها على التوالي كتاب الملهوف في قتلى الطفوف للسيد علي بن موسى بن جعفر بن طاووس رحمته، المتوفى سنة (٦٦٤) هـ، وله كتاب المصراع الشين في قتل الحسين، لكن كتاب الملهوف انتشر انتشاراً كبيراً، وأغلب المقاتل والكتب التاريخية التي صنفت بعده نقلت عنه، خصوصاً وأن أغلب الكتب التي تقدمته لم يبق منها إلا الاسم، إلا قليل منها.

وتعتمد رواية المقتل على هذا الكتاب بشكل أساسي، وعلى الإرشاد للشيخ المفيد رحمته، وعلى كتب رواية أهل البيت وأخبارهم عليهم، فأحداث عاشوراء مبثوثة فيها، كمصنفات شيخ الطائفة الطوسي رحمته وخصوصاً الأمالي، وكذلك مصنفات الشيخ الصدوق رحمته عموماً، وسائر كتب الحديث المتقدمة والمتأخرة، وقد جمع المولى المتبحر العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي رحمته وقائع المقتل من مختلف المصادر المهمة التي وقعت في يده، وأدرجها في كتابه القيم بحار الأنوار.

ويمكننا أن نعتبر اليوم كتاب بحار الأنوار موسوعتنا التي تغني المكتبة الشيعية بمختلف المعارف الخاصة، الملمة بسيرة أهل البيت عليهم وتاريخهم، إذ أنها تضم محتويات أهم المصادر المعتبرة المتقدمة عليه، وقد حفظ العلامة المجلسي رحمته في بحاره تراث أهل البيت عليهم من الضياع، وصانه من التلف والتبدد، فجزاه عنهم عليهم وعنا أفضل جزاء المحسنين.

(١) راجع ترجمته المطبوعة في نهاية المعجم الكبير، التي أفرد لها ابن مندة جزءاً حافلاً، وعد في ص

(٣٦٢) رقم (٣٩) هذا الكتاب له.

بحار الأنوار

الموسوعة الأكبر في المكتبة الشيعية، المقدمة في مختلف المعارف المتصلة بأهل البيت عليهم السلام، المأخوذة من مختلف وشتى المصادر المعتبرة والأصول التي انتهت إلى يدي جامع دررها المرحوم العلامة المجلسي رحمته الله، الملمة بأساسة الإمام الحسين عليه السلام وسيرته العطرة، الأجمع لحوادث واقعة الطف.

وإذا ما نظرنا في الجزء المختص بالإمام الحسين عليه السلام والواقعة واجهنا جهده المبذول في هذا الصدد، فقد اعتمد رحمته الله على جملة من المصادر المهمة التي انتهت إليه فأتم منها رواية المقتل، وهي على درجة عالية من الإعتبار، وأهمها الملهوف للسيد رحمته الله والإرشاد للمفيد رحمته الله والمناقب لابن شهر آشوب رحمته الله والإحتجاج للطبرسي رحمته الله ومثير الأحزان لابن نما رحمته الله ومقتل أبي مخنف والكمال لابن الأثير ومقاتل الطالبين لأبي الفرج وتاريخ البلاذري.

واعتمد على جملة من كتب الحديث والرواية، أهمها الكافي للكليني رحمته الله والأمالى والتهذيب والمصباح للطوسي رحمته الله، وغيبة النعماني رحمته الله والخرايج للراوندي رحمته الله، والأمالى وعيون أخبار الرضا عليه السلام وثواب الأعمال وعلل الشرائع للصدوق رحمته الله، وتفسير علي بن ابراهيم رحمته الله وتفسير العياشي رحمته الله، ورجال الكشي رحمته الله، وبصائر الدرجات للصفار رحمته الله وكامل الزيارات لابن قولويه رحمته الله وإقبال الأعمال لابن طاووس رحمته الله ونوادر علي بن أسباط رحمته الله، وأمالى المفيد رحمته الله وقرب الإسناد للحميري رحمته الله، والمحاسن للبرقي رحمته الله والدعوات للراوندي وقصص الأنبياء للراوندي رحمته الله.

واعتمد في رواية المقتل على كتاب محمد بن أبي طالب رحمته، وكتابه يضمّ خبر مقتل الإمام الحسين عليه السلام^(١)، وهو كتابٌ قيّم.

وكذلك اعتمد رحمته في النقل على النسخ الخاصة التي كانت مجوزته، ولم يسمّ بعضها، فقد نقل نصوصها تارة "عن بعض الرواة" وعند التحري وجدنا أنّ تلك الأخبار التي لم يسمّ مصدرها موجودة في تاريخ الطبري، فيحتمل قوياً أن يقصده بقوله بعض الرواة، ونقل تارة أخرى عن بعض الكتب، أو بعض كتب المناقب، أو قال: وجدت بخط بعض الأفاضل.

ولا يختلف أهل العلم في مكانة كتاب بحار الأنوار وأهميته، فهو الجامع لدرر المرويّات عن الأئمة الأطهار عليهم السلام، وقد بذل الشيخ رحمته غاية الوسع في جمع الأخبار والأحاديث والروايات في مختلف أبواب المعارف الإسلامية، وعلّق على بعضها تعليقات هامة جداً، وطعم الكتاب بتبنيها وتوضيحات غاية في الأهمية، حتّى عدّ اليوم من أهم المصادر المعتبرة على مستوى الطائفة، والموسوعة الكبرى الأغنى في تاريخ التصنيفات والتأليفات.

هذه هي منزلة بحار الأنوار وإن استخفّ بها البعض ممّن جحد فضل هذا الأثر النفيس، ممّا أغرى بعض الكتّاب العصريّين للطعن فيه جهلاً منهم بمقامه، بحجة أنّ فيه غير الصحيح، وكأنّ الشيخ رحمته ادّعى أو التزم جمع الصحاح من

(١) حصلت على نسخته المخطوطة من المحقّق المرحوم السيّد عبد العزيز الطباطبائي رحمته، بواسطة أستاذنا المحقّق العلامة السيّد محمد رضا الجلالى الحسينى الجلالى، والمخطوطة الأصل في مكتبة الشيخ النمازي رحمته المخطوطة في خوي، وقد استعنت بالكتاب لتحقيق بعض نصوص كتاب الأسرار للفاضل الدربندي، وقد طبع مؤخراً باسم تسليّة المجالس وزينة المجالس في مجلدين.

الأخبار فيه! وكأنّ في عالم الكتب كتاب يخلو من غير الصّحيح! وينبغي أن يكون النقد علمياً موضوعياً، أبعده ما يكون عن توجيه الهوى أو تحكيم الأذواق الخاصّة، فإنّه حين تقصّر السنة البعض عن نقد الإسلام متمثلاً في فكر أهل البيت عليهم السلام وجهوا سهامهم وسمومهم إلى العلماء الربّانيين الذين بذلوا وسعهم في حفظ تراث أهل البيت عليهم السلام والذبّ عنه.

حتّى قال بعض هؤلاء الذين يحسبون أنّهم يُحسنون صنّعاً:

وقد رأى البعض أن كتاب بحار الأنور الذي ألفه شيخ الإسلام في أصفهان محمد باقر المجلسي (١٦٢٧م - ١٧٠٠م) في عهد الشاه سليمان والشاه حسين الصفوي، الذي ساعد على نشر التشيع في إيران، كان أحد الكتب التي أساءت إلى التشيع أكثر مما نفعته، وذلك بسبب ما جُمع فيه من أخبار وروايات وأحاديث وقصص وحتى بعض الأساطير، دون أن يفرز غثها من سمينها، كما أشار إلى ذلك في مقدّمة كتابه، ووضعها في متناول أيدي العامة والبسطاء من الناس وخصوصاً بعض قراء المجالس الحسينية الذين أخذوا منه ما يروق لهم، دون تمحيص، واستخدموا ذلك وسيلة لإثارة العواطف، وتركوا ما هو مفيد وهام فيه^(١).

(١) راجع كتاب تراجميديا كربلاء (سوسيولوجيا الخطاب الشيعي) لإبراهيم الحيدري ص (٤٦١) طبع دار السّاقى، سنة ١٩٩٩م.. ولقد سبّرت غور هذا الكتاب فألفيته قيماً جدّاً، والجهد واضح فيه، فهو يجمع بين البحث العلمي والعرض التاريخي، إلّا أنّني فوجئت لما تحبّط في الباب الأخير منه عند الحديث عن محاولات استغلال وتشويه الشعائر الحسينية، فقد انحدرت قيمة الكتاب إلى المستوى الذي لا يليق بأوله مطلقاً، ويبدو لي أنه أقحم نفسه في غير اختصاصه، ونسال الله له ولنا العافية.

إن هذا الكاتب قد أرسل كلامه على عواهنه إرسالاً، من غير تحقيق ولا تدقيق ولا خوف من محاسبة، ولو كان في معرض نقد كتاب غربي لتأدّب وتممّق وبين وجوه دعواه بمسؤوليّة! وقد أمن وأمثاله العقوبة، فأضحى تراثنا الزّاخر مرمى لكلّ من هبّ ودبّ، وقصّرت عزائمنا عن صد أيّ وليجة تقتحم حصننا، فكثرت علينا الغوائل، وتخطّفتنا القريب والبعيد!!

فإنّه قد تمادى فعلاً حين رمى هذا الأثر النفيس الذي حفظ معارف أهل البيت عليهم السلام وجملة تراثهم ونشر فكرهم بالإساءة إلى التشيع!! فإذا كان البحار قد أساء بزعمه إلى التشيع فلست أدري أيّ كتاب أحسن إليه في نظره إذا!!

وليته دلّنا على الأخبار والروايات والأحاديث والقصص التي لم تعجبه فيه، وليته دلّنا على الأساطير التي زعم وجودها فيه لنفهم أبعاد نقده!! وهل يذنب المؤلف رحمته الله أم يسقط كتابه عن الاعتبار إذا صار كتابه في متناول العامة والبسطاء أو قرّاء المجالس فأخذوا منه ما يروق لهم دون تمحيص واستخدموا ذلك وسيلة لإثارة العواطف، فيا سبحان الله!! أيّ برهان عظيم هذا!! وهل سلم القرآن الكريم من كلّ ذلك حتّى يسلم كتاب بحار الأنوار!!

وكنت أتمنى لو أنّه كان قد فرز الغثّ من السّمين، حتّى يميّز الغثّ بزعمه فيعرف قارئه بطبيعة أفكاره ومنتهاى أبعادها، ولعلّنا ننتهي! فلعلّنا ندين الله تعالى ببعض هذا الغثّ فنهتدي من خلال حجّته! ولا يخامرني شكّ في أنّ ذنب هذا الكاتب وأضرابه في أعناق أقوام آخرين قلّدهم الناس أديانهم، ثمّ تردّدت هذه الكلمات في أفواههم وانتقلت إلى أمثال هذا الكاتب فراحوا يكرّرون كاللبغغاء كلماتهم!! من غير تفحص أو تحقيق، وسندلّ على ذلك.

أمّا علماءنا الأبرار رحمهم الله فكانوا يُجلُّون كتب الحديث إجلالاً كبيراً، ويتحاشون الرد على رواية مهما كان سبب الرد، فإن لم يفقهوها أو لم يفهموها ردّوا علمها إلى أهلها عليهم السلام، فإنّ ترك العمل بها لا يعني الإستخفاف بها، أعوذ بالله تعالى من ذلك، وكانوا في غاية الإحتياط من هذه الناحية، وقد نُقل في أحوال بعضهم رحمهم الله أنّه كان يضع كتاب الحديث على رأسه ويُجلّه ويقول: "إنّ كتب الحديث الشّريف كالقرآن الكريم ينبغي احترامها".

ورُوِيَ في بصائر الدرجات عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: أما والله إن أحب أصحابي إليّ أروعهم وأفقههم وأكتمهم لحديثنا، وإن أسوأهم عندي حالاً وأمقتهم إليّ الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروي عنّا فلم يعقله ولم يقبله قلبه اشمأز منه وجحده وكفر بمن دان به، وهو لا يدري لعل الحديث من عندنا خرج، وإلينا أسند فيكون بذلك خارجاً من ولايتنا^(١).

أسرار الشهادة

إنّ تعيين المصادر التي يجب الأخذ منها وتلك التي ينبغي طرحها من وظائف أهل الإختصاص، وإلّا أفضى الحال إلى جرأة الكثيرين على توهين المصادر المعتمدة من دون وجه يُذكر، وهذا ما دعى بعض علمائنا من المتقدّمين والمتأخّرين للتصدّي إلى تنقيح المطالب سعياً لصيانة المنبر من التّشويه.

(١) راجع بحار الأنوار (١٨٦/٢).

أمّا الشيخ النوري رحمته ^(١) فقد كتب في اللؤلؤ والمرجان فصولاً في توجيه خطباء المنبر الحسيني ، إذ يقول ما ترجمته : إنّ على الناقل أن ينقل عن ثقة مطمئن بنقله ، وذلك بأن يكون متحرّراً عن الكذب ، بانياً على الصدق ، بحيث كان الصدق له ملكة أو عادة ، حتى يكون معروفاً في ذلك بين من عرفه وعاشره ، وأن لا يكون كثير النسيان والسهو ، وأن يكون من أهل المعرفة والبصيرة ^(٢) .

ونقل كتاب أمير المؤمنين عليه السلام للحارث الهمداني : ولا تحدّث الناس بكل ما سمعت ، فكفى بذلك كذباً ، ونقل قولهم عليه السلام : ولا تحدّث إلا عن ثقة ، فتكون كذاباً ، والكذب ذل .. ثمّ قال : وحاصل مفاد جميع هذه الأخبار المعتبرة أنّ تكليف الناقل في مقام نقل أي أمر ديني أو دنيوي لغيره ، بنفسه أو بواسطة أو وسائط ، أو من كتاب ، أن ينقل عن شخص ثقة يطمئن بنقله ^(٣) .

فقد أوضح الشيخ النوري رحمته في طيّات كلامه الضابطة في النقل ، ويُعرف

(١) هو الشيخ حسين بن محمد تقي بن علي محمد بن تقي النوري الطبرسي رحمته ، المولود في الثامن عشر من شوال ١٢٤٥ هـ في طبرستان ، وهو من أجلة أعلام المذهب المحدثين ، وأغلب علماء الطائفة المعاصرين ينتهون إليه في سلسلة الرواية المنتهية إلى أهل البيت ، ولنا شرف الرواية بواسطته بإجازة آية الله العظمى المقدّس السيّد شهاب الدين المرعشي النجفي رحمته . ولشيخنا التّوري تصنيفات مهمّة ، من أهمّها : دار السلام فيما يتعلّق بالرؤيا والنام ، ومستدرك الوسائل ومستنبط المسائل .. توفي رحمته في ٢٦ جمادى الثانية ١٣٢٠ هـ ، ودُفن بجوار مرقد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في النجف الأشرف .

(٢) راجع اللؤلؤ والمرجان ص (١٣٦ - ١٣٧) والكلام مُترجمٌ عن الفارسيّة .

(٣) راجع اللؤلؤ والمرجان ص (١٣٧ - ١٣٨) .

من كلمات الجميع أنّ المناط هو الإطمئنان من مصدر موثوق، وهذا هو المقصود من الإعتبار الذي يُضاف إلى بعض الكتب دون غيرها فيقال: "الكتب المعتمدة". ولا نختلف معه في صغيرة ولا كبيرة من ذلك، وسنبرهن على مدلول كلماته بالدليل الشرعي، لكنّه رحمته شرع بعد ذلك في نقد جملة من الحكايات والكتب، وقد تناول بالنقد عدّة من أعلام المذهب الذين شهد لهم القاصي والداني بالفقاهة والقدس، وكان يجانب في نقده الدقة أحياناً، ومع شديد الأسف فإنّ كتابه صار مصدراً لمن يأتي بعده في هذا الموضوع، وتابعه العلامة الشّيخ المطهري رحمته بدقّة في كتابه الحماسة الحسينية من غير فحص أو تثبّت!

ولقد قيل أنّ لكلّ جواد كبوة، وقد كفى فرس خاتمة المحدثين الشّيخ النوري رحمته في عدّة مواضع من كتابه، وتبعه المطهري رحمته في ذلك حذو النعل بالنعل، فقد انتقدا بشدّة المرحوم الفقيه العلامة الدرّبندي رحمته وقدحا في كتابه أسرار الشهادة الذي يعتبر من المصادر المتينة والمعتبرة، ومن المؤسف أنّ كلامهما صار مصدراً للطعن في الكتاب عند الكثيرين من دون تثبّت تقليداً لهذين العلمين.

ولن أطيل الكلام في ترجمة المرحوم الفاضل الشّيخ الدرّبندي رحمته فالمصادر غنيّة بترجمته، ولنا مقدّمة ضافية على كتابه المذكور وفيها ترجمة وافية، فهو من العلماء الأتقياء ومراجع الدّين المعروفين بكرّ بلاء المقدّسة، وله كتبٌ في الفقه والأصول والرّجال وغيرها من العلوم، وكان من المهتمّين بالشّعائر الحسينيّة كثيراً، ومن الخطباء المتفجّعين في أيام عاشوراء، وحالاته معروفة في كتب التراجم. ويكفي أن أورد فيه رحمته كلمات خاتمة المحدثين المرحوم الشّيخ عبّاس القمّي

رحمته فهو الحجّة في التراجم، فقد قال في ترجمته :

الدّربندي : ملاّ آقا بن عابد بن رمضان علي بن زاهد الشّرواني الحائري ، شيخ ، فقيه ، متكلم ، محقق ، مدقق ، جامع المعقول والمنقول ، عارف بالفقه والأصول ، كان من تلامذة شريف العلماء ، وكان له في حب أهل البيت عليه السلام سيّما سيّد الشهداء عليه السلام مقام رفيع ، وتغيّر أحواله من اللطم والبكاء وغير ذلك من شدة مصيبتة على الحسين المظلوم عليه السلام في أيام عاشوراء مشهور..

يُحكى أنّه كان يعظّم كتب العلم سيّما كتب الحديث ، وأنه كلّما أخذ تهذيب الشيخ يقبله ويضعه على رأسه ويقول : كُتّب الحديث مثل القرآن المجيد يلزم احترامه^(١).

وقال في حقّه الآغا بزرك الطّهراني في الطبقات بعد ترجمة مُلمّة :

طال مكثه في كربلاء ، فكان من أجلاء العلماء بها ، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، كثير الحبّ لسيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام ، أثرت عليه وقعة الطّف بشكل كامل خاص ، فكان من أجلها ثائراً وموتوراً ، كثير التوجّع والبكاء واللطم والتّوج.

عاد أخيراً إلى إيران ، فسكن طهران ، وبقي مدّة كان فيها مثال العالم النّزيه ، وهو أحد نماذج السّلف الصّالح الذين يحقّ لنا الإعتراز بهم والإشادة بذكرهم^(٢).

كما أنّ له ترجمة مهمّة بقلم الإمام السيّد محسن الأمين رحمه الله في كتاب أعيان

(١) راجع الكنى والألقاب (٢/٢٢٨).

(٢) راجع طبقات أعلام الشيعة للآغا بزرك الطّهراني ، الكرام البررة في القرن الثالث بعد العشرة (١/١٥٣).

الشيعة، وأخرى في قصص العلماء للتكابني، وفي الأعلام للزركلي، وفي قسم الأعلام من المنجد، وكلها تدلّ على جلالته قدره وعظمة منزلته.

وقد ألف كتابه أسرار الشّهادة ورتبه على أربعة وأربعين مجلساً، وقدم له اثنتي عشر مقدّمة، وذيلها بتذييلات وتذنيبات، وللكتاب خاتمة فيها مجالس عديدة، وضمّ بين دفتيه مقامات وفوائد فقهية وأصولية ورجالية وعرفانية، تضمّنت مجالسه رواية مقتل الإمام الحسين عليه السلام من مختلف المصادر المعتبرة المعروفة، وقد عملنا على مقابلة نسخ الكتاب وإخراج مصادره من الكتب المعروفة، ولم يفتنا إلا القليل منها.

وبما أنّ المرحوم الفاضل الدرّيندي رحمته الله كان يعمل بمبنى الوجود المعروف عند علماء الرّجال من النقل عن النسخ المخطوطة العتيقة المنسوبة إلى مؤلّف معروف بعد الإطمئنان للنسبة، فإنّه نقل المجلس السّابع من أسراره عن نسخة عتيقة سقطت في يده منسوبة لشهاب الدّين العاملي رحمته الله، وصار ذلك سبباً للطعن عليه وعلى كتابه، إذ نفى المحدث النّوري رحمته الله نسبة هذه المخطوطة لشهاب الدّين العاملي أصلاً، بل أنّه نفى وجود كتاب مقتل للعاملي أصلاً، وأسقط بالتّالي بكلّ سهولة ويُسّر كتاب الأسرار عن الإعتبار.. وتابعه الشّيخ المطهري رحمته الله في هذا النقد بكلّ تفاصيله، ولا أظن أنّه رأى محتوى الكتاب أو حتّى رأى غلافه.

لقد فات هذين العلمين أن يتصفّحا كتاب الأسرار قبل هذا الحكم، كيف! والحكم يخصّ عالماً اتّفقت الكلمة واجتمعت على تأكيد علمه وفقاهته وتقواه وتعلّقه بسيد الشّهداء عليه السلام، مضافاً لعمله بمبنى الوجود الذي كان نقله عن النسخة بناءً عليه، ولو كانا قد تصفّحا الكتاب من غير الإعتقاد على الوسائط في

النقل لتمكنا من تلافي هذه الكبوة.

يقول العلامة المطهري رحمته: " يذكر الحاج نوري أيضاً أنه جاء يوماً أحد قراء التعزية من أهل الحلة إلى الحاج الشيخ عبد الحسين الطهراني ، في الوقت الذي كنا فيه نحضر درس هذا الشيخ الكبير وأخرج قاريء التعزية المذكور من جيبه كتاباً باسم مقتل الحسين وعرضه على الشيخ للتأكد من قيمة الكتاب ومدى صلاحه لقراء التعزية الحسينية ، وكان كتاباً لا أول ولا آخر ، سوى أنه ورد في موضع منه أن العالم الفلاني من أهل جبل عامل كان من تلامذة صاحب المعالم ، فأخذ الشيخ الطهراني رحمته الكتاب ليطلعه ، وعندما ذهب فعلاً وطالع أحوال ذلك العالم اكتشف أنه لم يصدر عن العالم المذكور يوماً ، ولا عرف عنه أنه ألّف كتاباً بهذا الاسم ، ثم أخذ يطالع الكتاب وإذا به يكتشف بأنه ليس سوى كتاب مملوء محشو بالأكاذيب .

فجاء إلى ذلك الواعظ الحلي وقال له : إياك أن تعرض هذا الكتاب مرة أخرى على أحد ، فإنه كتاب مملوء بالأكاذيب ، ولا يجوز التّقل منه بتاتاً ، وهو ليس من تأليف ذلك العالم المذكور أصلاً .

ويضيف الحاج نوري فيقول : عندما وقع هذا الكتاب بيد صاحب " أسرار الشهادة " قام بنقل كل مواضعه كما هي دون استثناء " (١) .

لقد جانب الشيخ النوري رحمته الصّواب حين ادّعى أنّ العلامة الدربندي رحمته قد نقل كل مواضعه كما هي دون استثناء ! لأنّه نقل عنه فصلاً واحداً في مبارزات

(١) راجع الملحمة الحسينية (١/٤٣ - ٤٤) .

الأصحاب عليهم السلام وشهادتهم، ضمن المجلس السابع، هذا أولاً.

أما ثانياً: فإنّ المرحوم الدرّبندي رحمته الله في أوّل تذييل على المجلس السابع يستبعد صحّة نسبة هذا الكتاب للعالمي ويستظهر كذبها ووضعها ويؤكد إرسال رواياتها، لكنّه نقلها للمناقشة على ديدن العلماء في الكتب العلميّة، وللوقوف على حقيقة الحال تحريماً للحقيقة فإنّا ننقل كلامه بنصّه لنبرّي ساحة هذا العالم النّحرير من أيّ سوءٍ يُظنّ في حقّه، قال رحمته الله:

إعلم أنّ هذه النّسخة التي نقلت ما في هذا المجلس عنها إنّما هي ملك للسيد العلوي، من المعاصرين، اسمه السيد جعفر، وهو كأبيه وجدّه من قرّاء المراثي وذاكري مصائب آل محمد عليهم السلام في مجالس الأعاظم ومآدب الأفاخم من أهل كربلاء، وهذا السيّد الجليل يحدّث عن أبيه وهو عن جدّه أنّ هذه النسخة إنّما هي من مصنّفات الشيخ الجليل شهاب الدّين العالمي، فهذه النسخة ليس في أوّلها ديباجة حتّى يعلم بسببها ما اسم المصنّف، ومع ذلك فهي غير تامّة، بل هي كراريس معدودة وأجزاء يسيرة.

إلى أن يقول: وكيف كان، فإنّ شذوذية وغرابة ما فيها - أي ما نقلنا عنها في كيفية شهادة سيد الشهداء وأقربائه - أظهر من أن يبيّن.

فهذا كما ترى يُستشَم منه علامة الوضع وإمارة الكذب، وعدم صحّة الإنتساب - أي انتساب هذه النسخة - إلى من ينسب إليه، أي شهاب الدين العالمي، على أنّ أكثر ما فيها إنّما هو على نمط الإرسال والإطلاق، ولا سيّما ما نقلنا عنها في باب القتلى من أصحاب ابن سعد، بمعنى أنّه لم يذكر فيها المدرك

المستند القائل بذلك من العلماء وأصحاب المقاتل ، وإن فيها من أسامي جماعة من الأنصار والأصحاب وأقرباء سيّد الشهداء غير موافق لما في الروايات وكتب أصحاب المقاتل ، وبالجملة ، فإنّي في حال هذه النسخة في شك وريب ، بل إنّ إمارات الوضع والجعل فيها ليست في غاية الخفاء.

فإن قلت : إذا كان الأمر كذلك فلم نقلت عنها ما نقلت في هذا المجلس ؟ بل إنّ نقل أمثال ذلك في الكتب والمصنّفات قد يفضي إلى ترويح الأمور المجعولة الموضوعة التي لا أصل لها أصلاً ، لأنّ مثل ذلك التقل يوقع الإشتباه والتدليس ، فيفضي ويؤدّي إلى ترويح الأمور الباطلة.

قلت : إنّ استشمام علامة الوضع بل الظنّ بإمارة الجعل والكذب ليس كالعلم والقطع بالوضع ، فما لا يجوز نقله إلّا بعد بيان حاله إنّما هو الثاني لا الأول ، غاية ما في الباب أن ما فيها يعدّ من الروايات الضعيفة ، ولا ضير ولا غائلة في نقلها في أمثال المقام ، وإن كان الراجح هو جانب عدم تطابقها للواقع ، وأما قضية التدليس والإشتباه فهي لا تجري في المقام بعد شرح حقيقة الحال وبسط المقال في أن تلك النسخة كانت كذلك وكذلك ، وإن شئت البيان فقل إن روايات أمثال هذه النسخة تدرج تحت قسم الوجدادة التي هي إحدى طرق تحمّل الروايات وأنقصها درجة وأحطّها منزلة عند العلماء ، أي من علماء الأصول والرجال والدراية.

ويمكن أن يقال : إن نقل أمثال ما في هذه النسخة على النمط الذي حقّقنا الحال فيه يشمله ما في جملة من الروايات ، وإن كان ذلك على نحو من الفحوى والإلتزام ، وذلك مثل ما في رواية السكوني عن الصادق عليه السلام قال :

قال أمير المؤمنين عليه السلام: إذا حدثتكم بحديث فأسندوه إلى الذي حدثكم، فإن كان حقاً فلكم، وإن كان كذباً فعليه، الحديث. ويمكن التأييد أيضاً بما في رواية ابن أبي عمير عن حسين الأحمسي عن الصادق عليه السلام قال: القلب يتكل على الكتابة، الحديث^(١).

والأمر أبين من الشمس وأظهر من الأمس بعد نقل كلامه رحمته، ولست أهتدي إلى عذر ألتمسه بعد ذلك لهذين العلمين رحمته، فلقد تسبباً بالطعن في كتاب الأسرار ونسباً مؤلفه إلى التهاون أو التدليس.

ومرّ مبنى الشيخ النوري رحمته، ومرّت كلمات العلامة الدررندي رحمته تأكيداً على الإتحاد في المبنى ونفيّاً لاحتمال التنافي بينها، إلا أنّ منشأ المشكلة هو الخطأ الذي وقع فيه النوري رحمته وتابعه عليه المطهري رحمته، ولا بدّ لنا من وقفة معه!

العلامة المطهري!

إنّ ما يدهشُ اللبّ هو أنّ الشيخ المطهري رحمته راح في كتابه "الحماسة" يشيّد تلك المزاعم دون تحقيق، فقال ذاماً كتاب روضة الشهداء الذي ألفه الكاشفي: إن مجالس الرّوضة المعروفة لدينا في إيران تعني قراءة كتاب "روضة الشهداء" للملا حسين الكاشفي، أي قراءة كتاب الأكاذيب والوضع والتحريف، ومنذ أن وقع هذا الكتاب بأيدي الناس لم يعد أحد يراجع أو يطالع حقيقة واقعة الطف^(١).

(١) راجع إكسير العبادات في أسرار الشهادات (٢/٣٠٥ - ٣٠٦) المطبوع بتحقيقنا.

(١) راجع الملحمة الحسينية (٤٣/١).

وسياتي الكلام في كتاب الكاشفي في نهاية هذا الفصل ، إلا أنه يعيننا هنا وصفه بالكذب والوضع والتحريف على الإطلاق ، ثم يتابع كلامه فيقول : ثم بعد ذلك ظهر علينا قبل حوالي ستين أو سبعين عاماً المرحوم ملا آقا الدربندي ، وقام بجمع كتاب روضة الشهداء ، مضيفاً إليه بعض القصص الأخرى ، وألّف كتابه المعروف "أسرار الشهادة" ، وإنني يجب أن أقول الحقيقة بأن محتويات هذا الكتاب تدفع الإنسان للبكاء على الإسلام^(١).

ولدى التحقيق يتضح بكلّ جلاء أن هذه الكلمات تضمّ عدّة دعاوى باطلة ، فمحتوى كتاب "الأسرار" يغيّر محتوى "روضة الشهداء" جملةً وتفصيلاً ، والكتابان مختلفان من حيث التّبويب واللغة والمحتوى ، ولم ينقل العلامة الدربندي رحمته سطرًا واحدًا عن "الروضة" مطلقاً ، بإشارة أو غير إشارة ، ومصادر الأسرار واضحة ومذكورة فيه ، إلا ما نقله عن الألسن بالإشارة منه إلى ذلك ، أو ما نقله عن النسخة العتيقة كما نقلنا كلامه فيها.

ولدى الإمعان في "الحماسة" نقف على عبارات تتسم بالمبالغة والتسرّع والتقليد الخاطيء الذي لا يتناسب ومقام الشيخ المطهري رحمته قطعاً ، حتّى بدا لنا أن الكتاب مؤلّف أصلاً للحرب على الشعائر الحسينية وتضعيفها ، ويُسَمّ من عبائره الدّوق البعيد عن علماءنا الأبرار رحمته في التعامل مع الأخبار والآثار ، ولا بدّ من المرور على بعض عبائره وقوفاً على الحقيقة..

يقول في الملحمة الحسينية : إننا وللأسف الشديد قد حرّفنا حادثة عاشوراء

(١) راجع الملحمة الحسينية (٤٣/١).

ألف مرة ومرة أثناء عرضنا لها ونقل وقائعها! حرّفناها لفظياً أي في الشكل والظاهر أثناء عرض أصل الحادثة، متن الحادثة، والحواشي المتعلقة بالحادثة، كما تناول التحريف تفسير الحادثة وتحليلها، أي إنّ الحادثة مع الأسف قد تعرّضت للتحريف اللفظي كما تعرّضت للتحريف المعنوي^(١).

ولا مشاحة في صدق هذه الدّعوى ولا مكابرة، فالتحريف مرض الحوادث التاريخية الكبرى كلّها دون استثناء، لكنّه تدرّج من خلال هذه الدّعوى فترقى إلى غيرها، بحشد المبالغات والدّعوى الكبيرة التي لا تصمد أمام معول النقد، فقال: إن المادة المزوّرة والمدسوسة كثيرة للغاية، ولا يمكن حصرها بسهولة، وإذا ما أردنا جمع كل المآثم الكاذبة فأننا ربما سنحتاج إلى عدة مجلّدات ضخمة!^(٢).

ثم يتابع فيقول: من الواجب أن نقيم المآثم على الحسين عليه السلام، أما المآثم التي تقام عليه اليوم فهي جديدة، ولم تكن هكذا فيما مضى، وذلك سبب كل تلك الأكاذيب التي ألصقت بحادثة كربلاء دون أن يفضحها أحد، إننا يجب أن نبكي الحسين عليه السلام ولكن ليس بسبب السيوف والرماح التي استهدفت جسده الطاهر الشريف في ذلك اليوم التاريخي، بل بسبب الأكاذيب التي ألصقت بالواقعة^(٣).

وما أسرع أن ينحدر الخطاب إلى مستوى خطير جداً، فيشير بأصابع الاتهام للعلماء والحوارات العلميّة وينسب إليهم كلّ هذه الأكاذيب، ويصرّح بتوجيه تهمته إلى مراكز التشييع الأساسيّة! فيقول بعد سرد قصّة معيّنة: إن هذا العالم

(١) راجع الملحمة الحسينية (١٢/١).

(٢) راجع الملحمة الحسينية (١٢/١).

(٣) راجع الملحمة الحسينية (١٣/١).

الهندي تصور أن قراء التعزية الحسينية يبدأون بنشر الأكاذيب بعد أن يصلوا إلى الهند! ولا يدري أن المياه ملوثة من رأس التبع! وأن مصدر المآثم الكاذبة هي كربلاء! والنجف! وإيران! أي مراكز التشيع الأساسية نفسها! (١).

إنه يطعن في الثقل الذي يعتمد عليه المذهب، ويرمي مصادر الفكر النقية بالتلوث! وهذا كلام لا يقبله عالم أو منصف، ولا يرضاه حتى المطهري رحمته الله نفسه، ولا يسمح أن ينسب إليه فضلاً عن أن يطبع باسمه في حال من الأحوال، ونحن نحاشيه مما لا يليق به، وها هو يخالف صريح الأخبار المتقدمة من استحباب البكاء على الإمام الحسين عليه السلام في نفسه، ولا حاجة لإعادة الكلام في مدلولاتها، وينفي استحقاق الثواب على البكاء أصلاً! فيقول: أمّا الدموع التي تخرج من خلال العرض المأساوي ورسم المجزرة وتشريح الذبح والمذبحة فلا تساوي شيئاً، حتى لو كانت بحراً من الدموع! (٢).

وبناءً على ذلك فإنني لست أدري، ولا المرحوم المطهري رحمته الله يدري، متى تساوي دموع الباكين شيئاً عند كاتب هذه الكلمات، وكيف يبكي المحبون من دون العرض المأساوي الذي يتهكم عليه ويسخر منه! هل حين يسرد الكاتبُ بحثاً فلسفياً دقيقاً!

ولقد طالعنا هذه الأيام شرذمة لا حظ لها من العلم إلا بعض المصطلحات الصحفية، تتلاعب في الكلمات المزبجة والعناوين الغرّارة ولها

(١) راجع الملحمة الحسينية (١/١٣).

(٢) راجع الملحمة الحسينية (١/١٥).

طنين ورنين، تنادي بالدمعة العلميّة، وتفلسف الأحزان البديهيّة بأعقد الأساليب، وتفسّر الدّمع بالفكرة المغلقة، وتركّب البسائط الواضحة، وهي دعاوى لم نألفها عن ساداتنا الطاهرين عليهم السلام، وهذه زبدة القول في الردّ، وقد تقدّم الكلام في الحزن والبكاء بشكل مفصّل.

هذا، ويتسافل لحن الكلام شيئاً فشيئاً، ويتهادى ذات اليمين وذات الشمال، ويعارض المسلّمات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام فيقول: قد يقول البعض بأن الهدف من وراء ذلك كله مواساة سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام!! أليس أمراً مثيراً للسخرية؟ فهل تحتاج الزهراء إلى المواساة بعد مرور ١٤٠٠ عاماً على المأساة، في الوقت الذي نعلم فيه جميعاً بأن اجتماع الحسين الشهيد والزهراء البتول أمر ينص عليه قول الحسين عليه السلام نفسه وهو من ضرورات الدين أيضاً، فما معنى مثل هذا الكلام إذا؟! وهل أن فاطمة الزهراء عندكم طفلة صغيرة حتى تظل تلطم وتبكي بعد ١٤٠٠ عام حتى تأتي نحن لنعزيها ونأخذ بخاطرها؟! هذا هو الكلام الذي يخرب الدين^(١).

وماذا يُقال بعد ذلك رداً على ما يعارض التّقل الصّريح عنهم عليهم السلام، ويفتقر إلى أدنى مستويات المراعاة والإحترام، ويسيء الأدب بصراحة وجرأة بالنسبة إلى مولاتنا الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، وكان بالإمكان التدليل على المراد دون المساس بساحتها، وكان يمكن أن يُستغنى عن سوق هذه الكلمات! وهو يُنكر أن يكون بكاؤنا من باب التسلية والصّلة لمولاتنا الزهراء عليها السلام!

(١) راجع الملحمة الحسينية (٣٥/١).

وينكر كونها لا تزال تواصل البكاء على ولدها عليه السلام في عالمها الآخر! مع دلالة الأخبار في الكتب المعتبرة على تأكيد المطلبين بما لا مزيد عليه، ويكفي أن أشير إلى خبرين منها حذراً من الإطناب في الواضحات.

رَوَى ابن قولويه في كامل الزيارات عن زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام :
وما من عين أحبّ إلى الله ولا عبرة من عين بكت ودمعت عليه ، وما من باك يبكيه إلا وقد وصل فاطمة عليها السلام وأسعدها عليه ، ووصل رسول الله وأدى حقنا^(١).

وَرَوَى عن أبي بصير أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال : يا أبا بصير، إن فاطمة لتبكيه وتشهق ، فتزفر جهنم زفرة ، لو لا أن الخزنة يسمعون بكاءها ، وقد استعدوا لذلك مخافة أن يخرج منها عنق أو يشرد دخانها فيحرق أهل الأرض فيكبحونها ما دامت باكية ويزجرونها ويوثقون من أبوابها مخافة على أهل الأرض ، فلا تسكن حتى يسكن صوت فاطمة ، وإن البحار تكاد أن تنفتق فيدخل بعضها على بعض ، وما منها قطرة إلاّ بها ملك موكل ، فإذا سمع الملك صوتها أطفأ نارها بأجنحته ، وحبس بعضها على بعض مخافة على الدنيا ومن فيها ومن على الأرض.. فلا تزال الملائكة مشفقين يبكون لبكائها ، ويدعون الله ويتضرعون إليه ، ويتضرع أهل العرش ومن حوله ، وترتفع أصوات من الملائكة بالتقديس لله مخافة على أهل الأرض ، ولو أن صوتاً من أصواتهم يصل إلى الأرض لصعق

(١) راجع كامل الزيارات ص (٨١)، وبحار الأنوار (٢٠٧/٤٥)، ومستدرک الوسائل (٣١٤/١٠).

أهل الأرض وتقلّعت الجبال وزلزلت الأرض بأهلها.

قلت : جعلت فداك ، إن هذا الأمر عظيم. قال : غيره أعظم منه ما لم تسمعه ! ثم قال : يا أبا بصير ، أ ما تحب أن تكون فيمن يسعد فاطمة ؟ فبكيت حين قالها ، فما قدرت على المنطق ، وما قدرت على كلامي من البكاء ، ثم قام إلى المصلّي يدعو وخرجت من عنده على تلك الحال^(١).

وإن تعجب لشيء فاعجب من موجبات بكاء أبي بصير رحمته الله وحزنه ، فإنها دواعي سخرية وتهكّم كاتب هذه السطور!

ولا تتعجب من بعد كلّ هذا أن تقرّ الأعجب من كلّ ذلك ، فإنّه يقول أيضاً : " هناك قصة أخرى يذكرها الحاج نوري في كتابه أيضاً ، حيث يقول فيها : إن أحد طلاب الحوزة الدّينية في النّجف وهو من أهل يزد ، ذكر لي مرة ما حدث له وهو في الطريق إلى خراسان عبر الصحراء في إحدى رحلاته مشياً على الأقدام ، إذ قال : كنت قد توقّفت في إحدى الليالي في قرية من قرى نيشابور ، ولما كنت لا أعرف محلاً للإستراحة قرّرت الدّهاب إلى مسجد القرية ، وفي تلك الليلة كان من المقرر أن يصعد الإمام إلى المنبر لوعظ الناس عن المناسبة الحسينية. ولما بدأ قاريء التعزية بالقراءة ، وإذا بي أرى فراش المسجد يأتي بكمية من الحجر والحصى ويعطيها إلى الإمام القاريء الذي ما إن شرع بقراءة التعزية حتى أمر بإطفاء الأضواء وبدأ الحجر والحصى يتساقط على رؤوس الناس ، ثم تعالت أصواتهم وارتفع صراخهم ونحيبهم ، وبعد ذلك بقليل عادت الإنارة إلى المسجد ، وانتهت

(١) راجع كامل الزيارات ص (٨٠) ، وبحار الأنوار (٢٠٨/٤٥) ، ومستدرک الوسائل (٣١٥/١٠).

التعزية، وعندها رأيت الناس يخرجون من المسجد وهم يبكون، وأثار الجراح على رؤوسهم، فعجبت كثيراً مما رأيت، وذهبت إلى إمام الجماعة وسألته عما جرى والهدف من وراء ذلك؟!!

فأجابني بأن هؤلاء الناس الذين شاهدتهم الآن قد عملت المستحيل حتى يبكوا على الحسين ففشلت!! مما دفعني في النهاية إلى اختيار هذا الأسلوب باعتباره الأسلوب الناجع الوحيد لإبكائهم حتى يكسبوا الأجر والثواب الكثير!! وهذا يعني أن الغاية تبرر الوسيلة"^(١).

ويحتبس اللسان ويحير البيان في التعليق على هذه الحكاية التي أتعبت ناسجها وراويها وقاريها.. وكأنّ حادثة كربلاء تفتقر إلى الشجى والأسى حتى يُبكي هذا الإمام الناس تألماً على جراحاتهم! أم كيف يداوم الناس في محفل يعلمون عاقبة أمرهم فيه! إن في القصة أولاً وثانياً وعاشراً، وهي تشبه القصص التي يحكيها أعداء المذهب لتغيير الناس عن الشعائر الحسينية فلا تزداد إلا انتشاراً وقوة ورفعة. إنّ ما تقدّم يؤصّل جزمي بأنّ هذه العبائر ليست للشيخ المطهّري رحمته الله قطعاً، فقد ألف مجهولٌ كتابه بعد رحيله بزمن، جمعاً من أشرطة التسجيل، وقال جامعها أنّ ملقيها ألقى بعضها في المناسبات وبعضها في جلسات في البيوت، وبعضها أنصاف محاضرات أتمّ جامعها جملها وعباراتها التناقضة! وطبعها باللغة الفارسيّة باسم "حماسي حسيني"، ثمّ ترجمها إلى اللغة العربيّة فيما بعد من دون مقدّمات الكتاب الفارسيّة!!

(١) راجع الملحمة الحسينية (٤٠/١).

وتجد اليوم كتاب الملحمة الحسينية على أرفف جميع المكتبات الشيعة، وفي جميع البلدان، ويعد عند كثير من الباحثين المصدر الأول في تنقيح وتحقيق الشعائر الحسينية، والسّر في هذا الانتشار أنّ هناك من يهّمه ثلم شعائر الإمام الحسين عليه السلام ودعم حتى الأسلحة الموهومة في سبيل ثلمها، وأيسر الطرق أن يدعم هؤلاء نشر كتاب لعلم من أعلامنا يدسون فيه أهواءهم، وها هي عباراتهم لا تليق بأدنى طلبة العلم، فضلاً عن عالم مفكّر، وسنوافيك بعبارات أخرى قريباً.

وأحبّ أن أختتم حديثي عن هذا الكتاب ومؤلفه بكلمة العلامة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي، بعد مناقشته لكتاب الملحمة الحسينية، فهو يقول:

إنّنا نكاد نطمئن إلى أن كتاباً هذه حالاته وتلك هي ميزاته ومواصفاته لا يمكن أن يرضى الشهيد السعيد العلامة المطهري بأن ينسب إليه، خصوصاً إذا قيس بسائر مؤلفاته التي تتميز بالإحكام والإنسجام.

ولو أنّه كان رحمته على قيد الحياة لم يرض بنشره وعليه اسمه، لأنّه - وهو بهذا الحال - يحطّ من مقامه العلمي الرفيع، ويسيء إلى موقعه الثقافي المميز، ولكان قد زاد عليه وحذف منه وقلم وطعم وغير وبدل الشيء الكثير^(١).

روضة الشهداء

أعتقد أنّ الدّفاع عن السيرة الحسينية والعاملين المأمونين عليها واجب حتمي ومهم، والتصديّ للشُّبه في هذا المجال ضروري جداً، بل هو حقّ على عواتقنا

(١) راجع كربلاء فوق الشبهات للعلامة السيّد جعفر مرتضى العاملي، وهو كتيب قيّم يتعرّض لبعض محتويات الملحمة الحسينية ويخلص إلى هذه النتيجة.

يفرضه الإعراف بالفضل لأهله، وكنت قد كتبت بعض الفصول في الدفاع عن العلامة الدربندي رحمته منذ عام ١٤١٤ هـ كي أدرجها في مقدمة تحقيقنا على كتاب أسرار الشهادة، ثم بدا لي أن أستشير أحد أساتذتي الأعلام في قم المقدسة، فنصحتني بالإعراض عن إدراجها في مقدمة التحقيق لأنه ينبغي تجاهل الشبه الضعيفة وقتلها بهجرها، فمكّانة كاتب الأسرار رحمته أعلى وأجل من إثارة الشبه الواهية عليه في مقدمة كتابه، فامتثلت كلامه وأعرضت.

لكنّه كثر السّؤال في هذا الصّدّد في الآونة الأخيرة، وتعاضدت الرّايات على إثارة الشُّبه في هذا العصر، فقرّرت أن أدرج ملاحظاتي ضمن هذا الكتاب. ماذا أقول! وقد جمعتني في يوم من الأيام مجلساً مع أحد الفضلاء فسألني عن كتاب "أسرار الشهادة" وعن تحقيقه، فكنت أشرح له عملي فيه، حتّى وصلتُ في قولي إلى تخريج المصادر، فقال لي: وهل عثرت على مصدر لروايات الكتاب!! فأيقنت من حينها بضرورة كتابة هذه السّطور انتصاراً لهذا العالم والكتاب المظلومين، ولم تكن هذه الجرّة الأولى التي كسرت في الإسلام، فقد تناولت أيدي الإعتداء شخصيات علمية أخرى..

ولابدّ لنا من الوقوف على الشُّبه التي أوردها صاحب الملحمة حول الشيخ الكاشفي رحمته أيضاً، فإذا كنّا قد أسلفنا أنّه أسيء بحقّ العلامة الدربندي رحمته فإنّه لم يسلم هذا الآخر من ذلك، ونسأل الله الرّحمة والرّضوان للجميع.

فقد أسقط الشيخ المطهّري رحمته كتاب روضة الشّهداء عن الإعتبار جملة وتفصيلاً، ونظراً للسُّمعة العلميّة التي يتمتّع بها فقد تابعه جمع من كتّاب العصر فردّوا قوله، حتّى قفاهم بعض الخطباء في كتاباتهم أو في خطبهم المنبريّة، وبين

يُدي كتبٌ عدّة لكتّاب معروفين وغير معروفين كلّهم ردّدوا ما جاء في "الملحمة الحسينية" وأصل التّهم راجع إلى "اللؤلؤ والمرجان" للشيخ التّوري رحمته، فهو أوّل من طعن في كتاب روضة الشّهداء وكتابه الكاشفي..

إنّ الشيخ المطهري رحمته طعنَ في كتاب الرّوضة في عدّة مواطن، فقد قال في موطن منها: "إن مجالس الرّوضة المعروفة لدينا في إيران تعني قراءة كتاب "روضة الشّهداء" للملا حسين الكاشفي، أي قراءة كتاب الأكاذيب والوضع والتحريف، ومنذ أن وقع هذا الكتاب بأيدي الناس لم يعد أحد يراجع أو يطالع حقيقة واقعة الطف" ^(١).

وخلاصة طعنه عليه أنّ مؤلّفه سنّي المذهب ومتلوّن المعتقد، فهو سنّي عندما يزور هراة الأفغانية وشيعي متعصب في مسقط رأسه سبزوار، هذا أوّلاً، وثانياً هو ينفرد بنقل عدّة من القصص والأساطير، ويذكر عدّة من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ومن أعدائه الذين ليس لهم وجود أصلاً، وبالتالي فهو كتاب مخصّص للأكاذيب والتحريف والتزوير، ومع كلّ ذلك فقد صرف كتابه أنظار القراء عن الكتب المعتبرة واستأثر باهتمامهم.. ويمكننا أن نناقش هذا الكلام بحذافيره.

فقد ذكر العلماء - ومنهم المطهري - أنّ الكاشفي رحمته كان من أهل سبزوار، وهي مسقط رأسه، وقد كانت في أيامه إحدى مراكز التشييع في بلاد فارس، وقد عُرفت بالتّعصب لمذهب أهل البيت عليهم السلام، وهذا يقتضي أن يكون المولود فيها من المتعصبين للمذهب على شاكلة أهلها، إلاّ أن يُقام دليلٌ على خلاف ذلك.

(١) راجع الملحمة الحسينية (٤٣/١).

وعند مراجعة كتب التراجم نجد أنّ علماءنا الأعلام فصلّوا أحواله وعرفّوه بشكلٍ يثبت كونه من علماء الشيعة الذين يُعتد عليهم ويؤخذ عنهم. أما المحقق الخبير العلامة الشيخ عباس القمّي رحمته فإنه يقول: "الكاشفي: العالم الفاضل المولى حسين بن علي البيهقي السبزواري، واعظ جامع للعلوم الدينية، مفسّر محدّث متبحّر خبير، كان زوج أخت المولى عبد الرحمن الجامي، له مصنفات كثيرة، منها: جواهر التفسير ومختصره، وأنوار السّهيلي في تهذيب كليلة ودمنة، ألفه باسم الأمير أحمد الشهير بالسّهيلي، وأخلاق محسني فارسي كتبه باسم الشاه سلطان حسين ميرزا ابن بايقرا وولده محسن ميرزا، وقال في تاريخه:

أخلاق محسني بتمامي نوشته شد تاريخ هم نويس (زأخلاق محسني)
وروضة الشهداء، وغير ذلك، ومن أشعاره قصيدة في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام منها هذان البيتان:

ذريتي سؤال خليل خدا بخوان واز لا ينال عهد جوابش بكن ادا
كردد تورا عيان كه إمامت نه لايق است آنرا كه بوده بيشر عمر درخطا

وهذا يدل على تشييعه، تُوفّي بهرأة، في حدود سنة ٩١٠ هـ^(١).

وترجمه الميرزا عبد الله الأفندي رحمته في رياض العلماء ترجمة مهمّة، وله ترجمة ضافية في مجالس المؤمنين، كما أنّ الإمام السيّد محسن الأمين رحمته أورد أحواله وكتبه وأقوال العلماء فيه مفصّلاً في أعيان الشيعة، وكذلك الآغا بزرك

(١) راجع الكنى والألقاب للشيخ عباس القمّي (١٠٥/٣).

الطهراني رحمته في طبقات أعلام الشيعة.

والكل رأى أنّ التشيع واضح في قصائده ومصنفاته وكلماته، وذكر العلماء أنّ له قصيدة فارسية يصرّح فيها بتشيعه وفيها يستدل على عصمة الأئمة عليهم، ويظهر في نفس كتاب "روضة الشهداء" تشيعه، خصوصاً أنّه مؤلّف ومصنّف على ترتيب كتب علماء الشيعة، وفيه شرح وفاة النبي صلوات والأئمة عليهم ويركز فيه على شهادة الإمام الحسين عليه والمقتل.

أمّا نسبة التسنن فإنّها لحقته لأنّه كان يدرج آراء أهل السنّة وأهل التصوّف في كتبه، وقد قال الميرزا عبد الله الأفندي رحمته ردّاً على ذلك: أدرج في تفاسيره بل في غيرها من كتبه مسالك الصوّفيّة ومذاهب أهل السنّة، ولذلك يظن عدم تشيعه، وتشيعه عندي واضح^(١).

ويقول الآغا بزرك الطهراني رحمته: ومن الغريب استدلال البعض على أنّ الكاشفي كان حنفيّاً يشبه الشيعة، لأنّه ألّف رسالة في الفقه الحنفي! ^(٢)

فالفرق بين عرض آراء الآخرين وذكرها وبين تبنيها والعمل بها واضح، فلو عثرنا على كتاب لأحد أعلامنا وكان فيه آراء المخالفين هل يسوّغ لنا الطعن فيه لمجرد ذلك! فتأليف رسالة في فقه المخالفين لا يدلّ في حال من الأحوال على اعتناق مذهبهم، خصوصاً وإنّه لم يُقم أحدٌ دليلاً ناهضاً على تسنّنه، وقطع من ذكره من الأعلام بتشيعه، وربّما تكون منشأ التّهمة من صحبته للأمير ميرشير

(١) راجع أعيان الشيعة (١٢٢/٦).

(٢) راجع طبقات أعلام الشيعة، القرن العاشر (٦٩/٤).

علي الذي كان على مذهب الحنفيّة والذي كان وزيراً في هراة، أو مصاهرته للجامي وهو من أعلام الصوفيّة، وهذه قرائن تحرك الشكوك المحضة ولا توجب الظن بشيء فضلاً عن القطع به، خصوصاً مع قيام الحجّة بخلافها، وصحبته للأمير ومصاحبته وأمثال ذلك محمولة على المداراة كما هو ديدن علمائنا مع رؤساء عصرهم، والتاريخ بين أيدينا وحالاتهم معروفة.

ومع كلّ هذا، فلو قبلنا جدلاً تستن الكاشفي رحمته فما الذي يسقط كتابه عن الإعتبار أو يؤكّد كذبه وتلفيقه! ولماذا لا يعتبر من ضمن مصادر المقتل؟ حاله حال المصادر السنيّة التي تروي الحادثة وتؤكّد ظلامة أهل البيت عليهم، ومسلّم أنّ حوادث الطّف ليست توقيفيّة على رواة الشيعة، والمقاتل أماننا تعتمد في نقلها على الخوارزمي والطبري وابن الأثير وأبي مخنف، وهم من غير الشيعة قطعاً، فلماذا يرفض الشهيد المطهري رحمته رواية هذا السنّي ويعتمد على أولئك السنّة!

أمّا إذا قال أنّ الضابطة في نقل روايات الحادثة هي وثيقة الراوي فهل ثبتت لديه وثيقة الطبري وحميد بن مسلم وابن الأثير؟ وعلى ذلك فما وجه التفريق بين الكاشفي رحمته وغيره! حتّى نقبل رواية هؤلاء ولا نقبل رواية الكاشفي!!

وكيف كان، فإنّ استدلال "الحماسة الحسينيّة" غير ناهض، ولا يصمد أمام أوّل مهبّ نقدي، أم كيف يُصار إلى إخراج عَلم من أعلامنا عن التشيع لرواية خبر أو حتّى أخبار لا تروق له أو لغيره رحمته! إنّ هذا عجيب وغريب!

ومن الذي قال أنّ نقل رواية مكذوبة أو موضوعة في كتاب يؤدّي إلى إسقاطه بالجملة عن الإعتبار! فقد قيل أنّ كتاب سليم بن قيس الهلالي ساقط عن الإعتبار لوجود رواية مكذوبة فيه، مفادها أنّ محمّد بن أبي بكر وعظ أباه عند موته،

فاستبعد ذلك لصغر سنّه آنذاك.. فأجاب آية الله العظمى المحقّق السيّد أبو القاسم الخوئي رحمته عن هذا القول: "وأما وعظ محمد بن أبي بكر أباه عند موته فلو صح فهو وإن لم يكن عادة إلاّ أنّه يمكن أن يكون على نحو الكرامة وخرق العادة، وعلى ذلك فلا وجه للدعوى وضع كتاب سليم بن قيس أصلاً!!
وثانياً: إن اشتمال كتاب على أمر باطل في مورد أو موردين لا يدل على وضعه، كيف ويوجد ذلك في أكثر الكتب، حتى كتاب الكافي الذي هو أمّتن كتب الحديث وأتقنها"^(١).

الأخبار المكذوبة

ستعرف أنّ الضابطة الشرعية في نقل الأحداث التاريخية تختلف عن الضابطة المعتمدة في أبواب الأحكام الإلزامية، والقواعد المحكّمة في البابين مختلفة، وستتعرّف على الكذب الممنوع في باب التاريخ والحوادث، وبذلك يمكننا معالجة الدعاوى بأدوات العلم وضوابطه من غير حاجة للتعويل على حكم الغير أو الأذواق فيها.

وكيف كان، فقد زعم البعض حصر تلك الأخبار المكذوبة المتلوّة في المجالس الحسينية، في حين ادّعى صاحب "الملحمة الحسينية" أنّه لن يستطيع حصرها لأنّها تستوعب المجلّدات! وهذا تعريض بجملة أخبار الحادثة وتصريح بإسقاطها، سواء قصد ذلك أو لم يقصد، وعيّن بعض تلك المرويّات المقطوعة الكذب!!

(١) راجع معجم رجال الحديث (٢٥٥/٨).

ولا أكابر فأنكر وجود المرويّات المقطوعة الكذب فيها بالجملة ، فالطفّ حادثة تاريخية كبيرة ، وهي كغيرها.. فيها المرويّات الصحيحة كما أن فيها السقيمة ، وشأنها في ذلك شأن سائر الحوادث التاريخيّة ، فقد يقوم بعض الخطباء بتلاوة بعض الأخبار الضعيفة لجهل أو ضعف علميٍّ أو قلة إطلاع أو حسن ظنٍّ أو اعتماد على السّمع مثلاً ، إلاّ أنّه ليس كل الخطباء يتلو تلك الأخبار على المنابر.

فاللازم على العلماء تعيين المعتمد من غيره ، والتنبيه وصيانة المجالس من المخاطر والأخطاء ، والتحذير من تلاوة معلوم الكذب ، ولا تخلو حادثة مترامية الأطراف ومتعدّدة الجوانب كحادثة الطف من وجود الدّس والإختلاق ، كما أنّه ليس كلّ الناس يميّز بين الصحيح والفساد بين الأخبار ، ويتجلّى حينئذٍ دور النّخبة المتخصّصة الذين وظّفوا أنفسهم لخدمة العلم والتحقيق في تنقيح تلك الأخبار ، بصدر واسع وحبّ وأبوّة ومسؤوليّة.

والأمر المهمّ هو أنّنا لم نعهد من علمائنا التّشنيع على عموم الشّعائر بحجّة أنّ فيها بعض الكذب ! بل نحاشيهم من هذه ذلك ، لأنّ ذلك يُفضي إلى الوهن ويؤدّي إلى إضعاف الشّعار زاده الله عزّاً ورفعةً وعلوّاً ، وسيرة علمائنا على عكس ذلك تماماً.. رغم مرور القضية الحسينيّة بأجواء ساخنة ساقّت بعض الأعلام إلى آراء عجيبية وغريبة ، ينبغي الوقوف عليها برويّة وحكمة ، ونسأل الله تعالى للجميع حسن العاقبة والرّحمة.

وفي هذا السّياق عدّ السيّد محسن الأمين رحمته أخباراً واعتبرها من الكذب المتلو في المجالس ، ولا أدري ما هو مبناهُ في ذلك ، لأنّها لا تقصر عن المراسيل التي يعتمدها هو وكافة العلماء في باب التّاريخ والمواعظ والسّنن ، ولا بدّ من الوقوف

عليها ومناقشتها بجدٍ وروية، ، وإليك تلك الأخبار:

❖ حديث الطيور:

إستبعد السيد محسن الأمين رحمته حديث الطيور البيض المعروف، وأنكره وقطع بكذبه، وقصّتها مروية في بحار الأنوار وعوالم العلوم، ونصّها: روي عن طريق أهل البيت عليهم أنه لما استشهد الحسين عليه بقي في كربلاء صريعاً، ودمه على الأرض مسفوحاً، وإذا بطائر أبيض قد أتى وتمسّح بدمه وجاء والدم يقطر منه، فرأى طيوراً، فقال لهم: الحسين في أرض كربلاء في هذا الحرّ ملقى على الرمضاء، ضامئ مذبوح، ودمه مسفوح، فلمّا رأته الطيور، تواعن على دمه يتمرغن فيه، وأن طيراً من هذه الطيور قصد مدينة الرسول وجاء يرفرف حول قبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله يعلن بالنداء: ألا قتل الحسين بكرباء، ألا ذبح الحسين بكرباء^(١).

ومثله حديث الغراب الذي أعلم فاطمة بنت الحسين عليه بقتله، ونصّه: لما قُتل الحسين بن علي عليه جاء غراب، فوقع في دمه، ثم طار فوق بالمدينة على جدار فاطمة بنت الحسين بن علي عليه وهي الصغرى، فرفعت رأسها، فنظرت إليه، فبكت بكاءً شديداً^(٢).

(١) راجع عوالم العلوم والمعارف (١٧/٤٩٣ - ٤٩٤)، وبحار الأنوار (٤٥/١٩١ - ١٩٢).

(٢) راجع عوالم العلوم والمعارف (١٧/٤٩٠)، وبحار الأنوار (٤٥/١٧١) عن كتاب المناقب القديم، مسنداً، إلى المفضل بن عمر الجعفي، عن أبي عبد الله الصادق عليه عن أبيه، عن علي بن الحسين عليه، وراجع كتابه مدينة المعاجز (٤/٧٢ - ٧٣) بأسانيد مختلفة ومتون متقاربة من معجزاته عليه، وكرّر نقله في مواضع مختلفة.

ولا أدري كيف تسنت هذه النتيجة، إذ لا يمكن المصير إلى القطع بكذبها بحال، بل يمكن وضعها في دائرة الإحتمال والإمكان وإن استبعد عقلاً وقوعها، ووجه الإستبعاد صعوبة وصول الطير المتمرغ بالدم من كربلاء إلى المدينة، فضلاً عن وقوعه على جدران بيت فاطمة بنت الحسين عليها السلام.

ويرفع الإستبعاد بوجود حمام الرسائل المعروف بالعراق والذي يعين بالطيران البعيد، وقال شهاب الدين المعمري في كتاب التعريف: " أن أصل هذه الطيور من الموصل، وقد اعتنى بها الملوك الفاطميون إلى الغاية، وكانت الرسائل تعلق بأرجلها وترسل، فتطير للمكان الذي أعتادته مهما بعد، فإذا أخذ الكتاب منها عادت إلى المحل الذي جاءت منه، مزودة بكتاب أيضاً أو غير مزودة."

ويمكننا الجمع بين الروايتين بوجه وجيه، فنحتمل أن المقصود من هذه الطيور نوع من الغربان، أو أن الطائر المتمرغ لما تمرغ بالدم والتراب قرب لوئه من لون الغراب، فاتفق وقوعه على جدران بيت فاطمة عليها السلام.

ولماذا لا يُعدّ ذلك من المعجزات أو الكرامات الواقعة للإمام الحسين عليه السلام! والمحدث السيد هاشم البحراني رحمته الله عدّها في مدينة المعاجز ضمن معاجزه عليه السلام، وما المانع في ذلك! إلا أن ينكر المانعون خرق العادة للإمام عليه السلام أو يستبعدوا صدوره عن أصحاب الولاية عليهم السلام، ونحن ننزه السيد الأمين رحمته الله من ذلك.

❖ حديث تفقد الثنايا:

وقطع رحمته الله بكذب حديث تفقد الثنايا المنقول في كتاب الدمعة الساكبة، وهو

من تأليف العلامة المحقق السيّد محمد باقر البهبهاني رحمته وهذا لفظه: " عثرت على أشياء أرسلها بعض معاصرنا في مؤلفاتهم، فأحببت ذكرها، وإن لم أفهم عليها في الكتب، منها ما عن المفيد، قال: لما نزل الحسين عليه السلام في كربلاء كان أخص أصحابه وأكثرهم ملازمة له هلال بن نافع، سيّما في مظان الاغتيال، فخرج الحسين عليه السلام ذات ليلة إلى خارج الخيم حتى بعد، فتقلد هلال سيفه وأسرع في مشيه حتى لحقه، فرآه يختبر الثايا والعقبات والأكمات المشرفة على المنزل، ثم التفت إلى خلفه فرأى هلال، فقال: من الرجل؟ هلال؟

فقال: نعم، جعلني الله فداك، أزعجني خروجك ليلاً إلى جهة معكسر هذا الطاعي. فقال: يا هلال! خرجت أتفقد هذه التلال مخافة أن تكون كناً لهجوم الخيل على مخيمنا يوم تحملون ويحملون، ثم فارق الإمام هلال ودخل خيمة أخته، قالت: أخي! هل استعلمت من أصحابك نياتهم؟ فبكى عليه السلام وقال: أما والله لقد بلوتهم وليس فيهم إلاّ الأشوس الأفعس.. إلى آخر الخبر" (١).

والمقصود بالمعاصر الذي ينقل عنه صاحب الدّعة هو العالم العامل الشيخ حسن الملقّب بأبي قفطان (٢)، فقد حُكي أنّه روى أحاديث كثيرة، منها حديث

(١) راجع الدّعة الساكبة (٢/٢٩١).

(٢) هو الشيخ حسن بن الشيخ علي بن نجم بن عبد الحسين السعدي الرياحي الدجيلي، الشهير بـ"قفطان"، وُلد في النجف الأشرف سنة ١٢٠٠ هـ تقريباً، ودرس الفقه عند الشيخ علي كاشف الغطاء، والأصول عند الميرزا أبي القاسم القمّي صاحب "القوانين"، ثمّ حضر درس الشيخ محمد حسن النجفي صاحب "الجواهر" حتّى أصبح من أخصّ تلامذته وأفاضلهم وأقربهم إليه. راجع لترجمته: (طبقات أعلام الشيعة / الكرام البررة في القرن الثالث بعد العشرة ص ٣٣٩).

"تفقد الثنايا"، وحديث "أنا صاحب السيف الصقيل"، وحديث "أين ظلت مطيبتك يا حسان" عن مشايخ رواة من أهل الكوفة، وهم يروونها بدورهم عن آبائهم ومشايخهم.

وينبغي عدم الإسراع في نكران ما نجعله من الأخبار، فكم من روايات فقدناها، وكم من كتب راحت في الكوارث فضاعت رواياتها وأخبارها، والحق أنّ الروايات التي ينقلها أبو قفطان لا تقصر عن المراسيل المروية في الكتب القديمة عن حميد بن مسلم وهلال بن نافع، وبين زمان تأليفها وزمن رواتها أكثر من خمسمئة عام.

فلا بدّ من التروّي في ردّ أمثال تلك المرويّات المنقولة عن العلماء المعروفين بالفقاهة والصلاح، فالشيخ حسن السّعدي رحمته الله من كبار علماء الطائفة، ومن أبرز تلاميذ الميرزا أبي القاسم القمي رحمته الله صاحب القوانين في الأصول، والعلامة المحقق المدقق صاحب الجواهر رحمته الله في الفقه، وهو فقيه وأديب، وله شعر كثير في رثاء سيد الشهداء عليه السلام، وله كتاب في مقتل الحسين عليه السلام يتضمّن مراسيل غريبة على المسامع، وقد أخفاه في حياته تحرجاً من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ بعض ما فيه لم يروه بلفظه، وتورّع عن النقل بالمعنى، وقد صاغه بشعره وأدبه، ونقل عنه السيّد البهبهاني رحمته الله في الدّعة السّاكبة كثيراً.

وله عدّة مؤلّفات، منها كتاب في مقتل الإمام الحسين عليه السلام، وقد أطراه ووثقه كلّ من ذكره وترجم له، منهم: المحدّث الميرزا حسين النوري، والسيّد حسن الصدر، والشيخ محمّد حرز الدين، والسيّد محسن الأمين، والشيخ الطهراني.

ولم يكن رحمته العالم الوحيد الذي يمتلك تلك الدرر الخاصة المروية بالطرق الخاصة في الأحاديث والحوادث التاريخية، فلقد سمعتُ مشافهةً من بعض أعيان العلماء الأعلام مثل ذلك أيضاً، فقد حدثني آية الله العظمى المقدس السيد المرعشي النجفي رحمته ^(١) أنه يروي بإسنادٍ متصل إلى مشايخه بالإجازة بعض مشاهد الطف التي لم تُطبع في كتاب ولم يسمعها إلا خواص العلماء! كما أنني سمعتُ من العلامة المحقق السيد عبد الزهراء الخطيب رحمته أنه يروي مجموعة نفيسة من أخبار يوم الطف من طرقه الخاصة، ومثلها كثير من العلماء الأعلام.

وهؤلاء علماء أجلاء معروفون بالثبوت والإحتياط، وقطعاً إن مراسيلهم التي يروونها لا تقل وزناً عن مراسيل المتقدمين، فما هو وجه القطع بكذب مروياتهم

(١) هو المرجع الكبير السيد أبو المعالي، شهاب الدين محمد حسين ابن السيد محمود ابن السيد علي المرعشي النجفي، المنتهي نسبه إلى الإمام زين العابدين عليه السلام. وُلِدَ في العشرين من صفر ١٣١٥ هـ بمدينة النجف الأشرف، كان رحمته آيةً في العلوم الدينية والفقهِ والأصول، وله إمامٌ علم الطب القديم، وله باعٌ في علم النسب، وهو إمام مشايخ الرواية في هذا العصر، وقد تفضّل عليّ وأجازني بالرواية بطرقه إلى أهل البيت عليهم السلام.. من أهم أساتذته: الشيخ محمد حسين الغروي الإصفهاني "الكُمباني" رحمته، والشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي رحمته، والشيخ ضياء الدين العراقي رحمته، والشيخ عبد الله المامقاني رحمته، والسيد علي الطباطبائي اليزدي رحمته، والسيد هبة الدين الشهرستاني رحمته، والشيخ محمد جواد البلاغي رحمته، والسيد حسن الصدر رحمته وآخرون. وتلمذ على يده عدّة من العلماء الأعلام.. قال فيه الشيخ الطهراني رحمته في مصفى المقال: "وهو الفاضل المعاصر، الماهر في فنّ الرجال والأنساب والتاريخ وتراجم العلماء وأحوالهم وطبقاتهم، وطُرق مشيختهم وإجازتهم". وله مؤلفات كثيرة ومهمّة.. تُوفّي رحمته في السابع من صفر ١٤١١ هـ بمدينة قم المقدّسة ودُفِنَ بمكتبته فيها.

ونقولათهم! وما هو السرّ في طرح الأخذ بها والأخذ بمراسيل المتقدّمين!

❖ حديث دفن السجاد عليه السلام أبيه :

وقطع رحمته بكذب حديث دفن الإمام السجاد عليه السلام لأبيه الإمام الحسين عليه السلام الذي نقله السيّد البهبهاني رحمته في كتاب الدّمة الساكبة عن بعض الكتب المعتمدة وهو كتاب أسرار الشّهادات^(١).

وهي حادثة مشهورة، وتُحملُ على خصوصيّات الأئمة الطاهرين عليهم وكرامتهم على الله تعالى، ومؤدّاها مبنوثُ في الكتب المعتمدة.

ويؤيّد خصوص مورد الرواية ما رواه الكشّي في رجاله عن الإمام الرضا عليه السلام المتضمّن تقرير الواقعة، وأن علي بن الحسين عليه السلام هو الذي دفن أباه عليه السلام صراحة، فقد ذكر ذلك في ترجمة ابن السراج وابن البطائني وابن المكارني في حديث طويل، وفيه: فقال له علي - يعني ابن أبي حمزة البطائني - : إنّا روينا عن آبائك أن الإمام لا يلي أمره إلاّ إمام مثله.. فقال له أبو الحسن عليه السلام : فأخبرني عن الحسين بن علي عليه السلام كان إماماً أو كان غير إمام؟ قال : كان إماماً.. قال : فمن ولي أمره؟ فقال : علي بن الحسين.. قال : وأين كان علي بن الحسين؟ قال : كان محبوساً في يد عبید الله بن زياد في الكوفة، خرج وهم كانوا لا يعلمون حتى ولي أمر أبيه، ثم انصرف.

فقال له أبو الحسن عليه السلام : إن هذا الذي أمكن علي بن الحسين أن يأتي من كربلاء فيلي أمر أبيه فهو أمكن صاحب هذا الأمر أن يأتي بغداد فيلي أمر أبيه ثم

(١) راجع الدّمة الساكبة (٢/٣١٧).

ينصرف، وليس هو في حبس ولا في إساءة^(١).

والقول المقابل لهذا هو القول بدفن بني أسد للإمام الحسين عليه السلام، وهو قول بعض القدماء، إلا أنه يمكننا الجمع بين القولين، فيمكن حمل القول الثاني على معاونتهم للإمام السجاد عليه السلام في دفن أبيه عليه السلام، ومثل ذلك ما جاء في زيارة الناحية المقدسة: "السلام على من دفنه أهل القرى"^(٢).

وما يرد في كتب الحديث من هذا القبيل محمول على معاونته الإمام السجاد عليه السلام في دفن أبيه عليه السلام، كرواية بحار الأنوار المنقولة عن مصباح الشيخ أبي منصور عليه السلام أنه دخل النبي ﷺ يوماً إلى فاطمة - حتى قال: - وأما الحسين عليه السلام فإنه يُظلم، ويُمنع حقه، وتُقتل عترته، وتطوّه الخيل، ويُنهب رحلته، وتُسبى نساؤه وذراياه، ويُدفن مرملاً بدمه، ويدفنه الغرباء. قال علي عليه السلام: فبكيت، وقلت هل يزوره أحد؟ فقال: يزوره الغرباء^(٣).

وكذلك رواية الشيخ المفيد عليه السلام في الإرشاد، وفيها: ولما رحل ابن سعد خرج قوم من بني أسد كانوا نزولاً بالغازية إلى الحسين وأصحابه عليه السلام، فصلّوا عليهم،

(١) راجع رجال الكشي ص (٢٨٩)، وقد نصّت روايات أخرى على أنّ الإمام لا يلي أمره إلا إمام، إما ظاهراً وإما بطريق الخفاء، كما في بحار الأنوار (٢٧/٢٨٨ - ٢٩١) و (٤٥/١٦٩) وفيها أخبار تدل نصاً وتقريراً على ذلك.

(٢) جزء من زيارة عاشوراء المعروفة بالناحية المقدسة، ذكرها الشيخ المفيد في كتاب المزار ص (١٦٥ - ١٧١)، ونقلها عنه في البحار (٩٨/٣١٧ - ٣٢٨)، وروينا بعض فقراتها في الكتاب.

(٣) راجع بحار الأنوار (٩٨/٤٤).

ودفنوا الحسين عليه السلام حيث قبره الآن^(١).

والحجّة في المقام هي الرواية المعتبرة التي رواها الكشي رحمته، وقد أورد العلامة الفاضل الدربندي رحمته في أسرار الشهادات خبراً يؤدّي إلى دفن السجاد عليه السلام جسد أبيه عليه السلام كما تقدّم.

وأورد شيخ الطائفة الطوسي رحمته في أماليه والشيخ الصدوق رحمته في أماليه بأسانيد معتبرة خبراً مفاده أنّ النبي صلى الله عليه وآله هو الذي دفن ولده الحسين عليه السلام.. فرويا عن الإمام الصادق عليه السلام أن أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وآله أصبحت يوماً تبكي بكاءً شديداً، فقيل لها: ممّ بكاءؤك؟ قالت: لقد قتل الحسين عليه السلام الليلة، وذلك أني ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله منذ مضى إلاّ الليلة، فرأيت شاحباً كثيراً.. فقلت: مالي أراك يا رسول الله شاحباً كثيراً؟ فقال: ما زلت الليلة أحفر القبور للحسين وأصحابه^(٢).

(١) راجع الإرشاد ص (١١٣/٢)، ومثله في اللهوف ص (١٢٧).

(٢) راجع أمالي الشيخ الطوسي ص (١١٩)، وأمالي الصدوق (٨٩/١). وهذا المعنى متكرّر في كتب الحديث، وروي في المناقب لابن شهر آشوب (٥٥/٤) أخباراً عن عدة طرق من الجمهور، وقد روي في أمالي الشيخ الصدوق (٣٢٢/١): عن أم سلمة: أنّها أصبحت تصرخ صراحاً عظيماً، وهي تقول: يا بنات عبد المطلب أسعدنني وابكينّ معي، فقد قتل سيدكنّ الحسين عليه السلام، فقيل لها: من أين علمت ذلك؟ فقالت: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله شعثاً مذعوراً، فسألته عن شأنه، فقال: قُتل ابني الحسين وأهل بيته، فدفتُّهم، والساعة فرغت من دفنهم. وفيه (٣٢٣/١): عن ابن عباس في رواية ابن جبير عن أم سلمة أيضاً في حديث طويل جاء فيه قولها: فلما كانت الليلة القابلة رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله أغبر أشعث، فسألته عن شأنه، فقال: ألم

ومع أنّ الشّيخ النوري رحمته قد استقصى في كتابه "اللؤلؤ والمرجان" الأخبار المكذوبة ولم يخص فيها هذا الحديث مُجماً ولا مفصلاً، ولا حديث الطيور البيض، ولا الغراب الذي طار من كربلاء إلى المدينة، خلافاً للسيد الأمين رحمته. فيبدو أنّها في نظره كذبٌ ظاهر لا ينبغي السكوت عليه، غير أنّنا إذا حاكمنا كتبه عثرنا على الكثير من هذه الأخبار مع أنّه ينسب مثيلاتها إلى الكذب المحرم في كتابه "تنزيه الشعائر! ففي طيّ كتابه "المجالس السنّية" أخبار ليس لها في المصادر المعتبرة عين ولا أثر، ولا حتّى في غيرها.

منها: قوله أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام شاهد شمر بن ذي الجوشن يفري بسيفه ويريدي الحسين عليه السلام حتى فصل رأسه المكرّم عن جسده!!
ومنها: وقوله أنّ الرباب أخذت رأس الحسين عليه السلام ووضعت في حجرها، وقبّلته وقالت:

واحسيناً فلا نسيتُ حسيناً أقصدته أسنة الأعداء^(١)

ومنها قوله: بات أطفال الحسين عليه السلام في الليلة الحادية عشر جياعاً عطاشاً.

ومنها قوله: كانت لحيته المباركة مخضوبة بالوسمة، كأنها سواد السبج.

→
تعلمي أنّي فرغت من دفن الحسين وأصحابه.

(١) ذكر أبو الفرج في الأغاني (١٢٦/١٦) هذا البيت، ونسبه إلى عاتكة بنت يزيد بن عمرو بن نفيل، وليس للرباب، التي لم يؤثر عنها أنها وضعت رأس الحسين عليه السلام في حجرها ولا قبّلته، وإنما المروي لها خمسة أبيات في رثائه ما ذكره أبو الفرج في الأغاني (١٥٨/١٤)، منها:
إن الذي كان نوراً يستضاء به بكربلاء قتيلاً غير مدفون

وقد ورد هذا الوصف ضمن مرسلة مسلم الجصاص التي جاء فيها: " أتوا بالرؤوس يقدمهم رأس الحسين عليه السلام وهو رأس زهري قمري، أشبه الخلق برسول الله ﷺ ولحيته كسواد السّبع بها.. فالتفتت زينب عليها السلام فرأت رأس أخيها، فنطحت جبينها بمقدّم الحمل، حتى رأينا الدم يخرج من تحت قناعها، وأومات إليه بحرقة" (١).

فبينا لا تروق له الرواية المرسلة إذا احتجّ بها المطبّرون نراه يروي شطراً منها في كتبه! وهذا أمرٌ عجيب، فما هي الضابطة في ردّ هذه وقبول تلك؟

حقيقة زفاف القاسم

من الحوادث التاريخية الواردة في المصادر والمتلوّة على منبر الإمام الحسين عليه السلام والتي قطع عدّة بكذبها ووضعها هي زفاف القاسم في يوم عاشوراء، إذ وصفها البعض بالأسطورة الشعبيّة وعبر عنها آخرون بالخرافة، وبعضٌ تعصّب فأقام الدّنيا ولم يُعدها في سبيل نفيها وتسفيه من يرونها!

وينبغي الإمام بمصادرها ومناقشتها بناءً على أصول البحث، فهي مسألة لا يصحّ التقليد فيها أو ترديد كلمات الآخرين فيها دون بيّنة، ففي الضفّة الأخرى علماء أوردوها وقبلوها، ولا بدّ من اعتماد دليل مقنع لترجيح طرف معيّن، ولا محلّ لقول البعض "لم يثبت عندي" أو "لا أساس له من الصّحّة" دون تقديم ما يثبت دعواه، فالرّأي ليس فتوىً للمقلّدين، والنظريّات قابلة للتجديد والتبدّل

(١) راجع بحار الأنوار (١١٤/٤٥) وعوالم العلوم (٣٧٣/١٧).

بظهور البراهين والحجج، ولهذا فقد صُنِّفت كتب في إثباتها وأخرى في نفيها^(١).
وبين أيدينا من كتب المثبتين كتاب المنتخب ومدينة المعاجز وتحفة اللباب

(١) المثبتون لرواية زفاف القاسم عليه السلام يوم الطَّف كُثُر، ويكفيها في تصنيفهم عدَّة روايات، كالعالم الشيخ فخر الدين الطريحي رحمته في المنتخب، والمحدِّث الخبير السيّد هاشم البحراني رحمته في مدينة المعاجز، والنسابة ضامن بن شدقم الشدقمي الحسيني في كتابه تحفة اللباب في ذكر نسب السادة الأنجاب، والعلامة الفاضل الدربندي رحمته في أسرار الشهادة، والمولى الكاشفي رحمته في روضة الشَّهداء.. وفي الذريعة أسماء لكتب عدَّة في إثباتها، ككتاب الحجج القاطعة في إثبات وقوع عرس القاسم بن الحسن عليه السلام، وكتاب الرد على التقرير الحاسم، المطبوع بالأردو للسيّد أبي الحسن علي بن نقي شاه الكشميري اللكنهوي، الذي كان تلميذ علي محمد بن السيد محمّد بن السيد دلدار علي النصير آبادي اللكنهوي، وكتاب دفع المغالطة، في مسألة عرس القاسم بن الحسن عليه السلام بكربلاء، للحكيم محمد كاظم اللكنهوي، وهو مطبوع بالأردو، ودقّ الخيشوم في جواز قراءة عرس القاسم المظلوم، لبعض علماء الهند، وهو ورد على التقرير الحاسم، وكتاب القاسمية في تحقيق عرس القاسم بن الحسن عليه السلام، لتاج العلماء السيد علي محمد اللكنهوي المتوفى (١٣١٢) هـ.

أمّا التّافون فدوّنوا رأيهم في عدَّة من تأليفاتهم، منها كتاب اللؤلؤ والمرجان للمحدِّث الشيخ الثّوري رحمته، وكتاب الملحمة الحسينية المنسوب للشيخ المطهري رحمته، وكتاب منية الخطيب للسيّد شعاع فاخر، وكتاب تراجيديا كربلاء لإبراهيم الحيدري، والتقرير الحاسم لعرس القاسم للسيّد ظهور حسين البارهي اللكنهوي المتوفى سنة (١٣٥٧) هـ، وكتاب قول صواب في نفي عرس القاسم للسيّد ظهور الحسين، بلسان الأردو، وكتاب البيان المبرهن في عرس القاسم بن الحسن عليه السلام للسيّد الحاج ميرزا علي بن السيد الحجة ميرزا محمد حسين المرعشي الحائري الشهير بالشهرستاني، المتوفى سنة (١٣٤٤) هـ وهو مطبوع، وكتاب جواب السؤال عن عرس القاسم عليه السلام للميرزا علي بن الميرزا محمد حسين الحسيني الحائري الشهرستاني المتوفى في (١٣٤٤) هـ.

وأسرار الشهادة وروضة الشهداء، ومن كتب النافين اللؤلؤ والمرجان والملحمة الحسينية ومنية الخطيب وتراجيديا كربلاء، وقد كذب الشيخ المطهري رحمته الحادثة تبعاً للشيخ النوري رحمته وتبعهم أغلب الباحثين والناقلين، فيمكننا مناقشة حجة النافين من خلال كلمات الملحمة الحسينية فهي المرجع في هذا الصدد.

وفيه: .. "إن وقائع المعركة التاريخية واضحة المعالم تماماً ومليئة بالفخر والعزة والمجد، ولكننا شوّهنا هذه الصفحة التاريخية المشرقة وارتكبنا خيانة كبرى بحق الإمام الحسين عليه السلام بحيث إنه لو ظهر إلى عالم الوجود المادي اليوم لاتهمنا بقلب حقيقة الواقعة رأساً على عقب، ولقال: إنني لستُ ذلك الحسين الذي رسمتموه في خيالكم، وإن القاسم بن الحسن الذي صورتموه، وعلي الأكبر الذي رسمتموه في مخيلتكم ليس هو ذاك الابن الأصيل من صلب الحسين، والأعوان الذين تتحدثون عنهم ليسوا بأعواني وأصحابي في يوم عاشوراء.

نعم فنحن قد صورنا القاسم ذلك العريس الذي لا همّ له إلاّ البحث عن زوجة ولا همّ لعمه أيضاً سوى تزويجه! فهل حاولتم مرة أخرى مقارنة هذا القاسم الذي اختلقتم شخصيته مع الشخصية التاريخية الحقيقية" ^(١).

وقال أيضاً: "الحاج نوري يذكر تحريفاً آخر أسوأ مما سبق، ويقول: تصوّروا في ذلك اليوم القائل جداً من عاشوراء وتحت حرارة الشمس الحارقة وفي الوقت الذي لم يترك الأعداء فيه مجالاً لإقامة الصلاة، وعندما أراد الإمام إقامة صلاة الخوف وقد أقامها بتلك العجلة المعروفة، فإنه لم يسلم من سهام الأعداء إلاّ بعد

(١) راجع الملحمة الحسينية (٢٤/١).

أن جعل اثنان من أصحابه من جسديهما مجنناً يحميه ، وقيل إنهما هلكا من كثرة الرماح التي أصابتهما حتى انتهى من تأدية ركعتي صلاة الخوف.

ففي مثل هذا الجو الإستثنائي وفي تلك الحالة تصوروا الحسين وهو يطلب من أهله وأنصاره أن يقيموا له حفل عرس ليزوج القاسم من إحدى بناته ، وهي الرغبة التي لا يريد أن يحملها معه إلى القبر !!

تصوّروا - بالله عليكم - هذا الكلام الذي كثيراً ما يتردد على لسان بسطاء الناس الذي يتمنون رؤية عرس ابنهم أو بنتهم قبل موتهم ، فينسبونه إلى شخص كالحسين بن علي عليه السلام وهو في خضم المعارك ، وفي ذلك اليوم التاريخي الذي لا مجال فيه حتى لإقامة الصلاة ، يطلب رؤية عرس القاسم من إحدى بناته.

نعم أنهم يتقولون على الحسين بأنه يريد تزويج ابن أخيه من بنته وإقامة حفل زواج لهما مهما كان مصغراً في ذلك اليوم بالذات ، لأنه قد يرحل من هذه الدنيا وبالتالي تذهب معه هذه الرغبة إلى عالم الآخرة !!

عرس القاسم !! وهل هناك من لم يسمع في كل تعزية من التعازي الحسينية بعرس القاسم ، هذا العريس الشاب صهر الإمام الحسين في يوم عاشوراء !! إنه اختلاق محض لا وجود لأي أساس له في كل الكتب المعتبرة ، لكنّه كما يكتب الحاج نوري فإنّ أول من أدخل هذه القصة في التاريخ الحسيني المزور هو الملا حسين الكاشفي في كتابه روضة الشهداء ^(١).

(١) راجع الملحمة الحسينية (٢٠/١).

وتقدّم الكلام حول المولى الكاشفي رحمته وكتابه روضة الشهداء، وسنورد نصّ ترجمة الرواية التي أوردها من كتابه الفارسي، ولا ننكر أنّ كتابه هو أقدم مصدر بين أيدينا قد روى الحادثة فيما نعلم، وعليه فيحتمل أن يكون هو مصدر المنتخب في النقل، كما يحتمل أن يكونا قد نقلنا عن مصدر آخر، واعتاد الكاشفي رحمته في كتابه على صياغة الوقائع صياغة أدبية خاصة مطعّمة بأبيات من الشعر والحماسة، فإذا حذفنا أبيات الشعر وعربنا روايته عن الفارسية يكون النصّ بهذا الشكل:

يقول الراوي: لما نظر القاسم بن الحسن عليه السلام إلى وجه أخيه الذي كان زهرة وادعة في الروض وقد ذبلت بشوكة تلك الحادثة الفتاكة تأوه وأقبل نحو عمه العزيز، وقال باكياً وقد احترق قلبه من نار الحسرة: يا مولاي، ويا إمام الكون، ليس لي طاقة بفراق الأقارب (الأحبة)، ولقد أنزلني الزمان من سرير بهجتي إلى تراب الغم والمصيبة، فأذن لي لكي أنفّس عن الغل الذي خلفه مقتل أخي، ولكي أجيب طلب أهل الضلال بحمد السنان.

فقال الإمام الحسين عليه السلام: يا عزيز عمه، إنك الذكرى من أخي، وأنت أنيس قلبي في هذه الصحراء، فكيف آذن لك وأضع حرقه فراقك في صدري، وخرجت أمّ القاسم من الخيمة مهرولة واحتضنت بيديها ولدها وصاحت: يا من حل محل قلبي ارفق بي، ولا تتعد عن ناظري، ولأنك دواء لقلبي فكن دواء عيني.

والقصة: أن القاسم لم يحظ بإذن الحرب، وكان إخوة الحسين يتهيئون لخوض الحرب، فجاء القاسم إلى الخيمة ووضع رأسه على ركبتيه مهموماً، وحينها تذكر أن أباه قد ربط عوذة على ذراعه، وكان قد أخبره: حينما يكون

الغم عليك شديداً وأحاط بك اليأس فحل هذه العوذة وقرأها واعمل بما فيها.
فقال القاسم لنفسه : طوال فترة حياتي لم يصبني مثل هذا الحال ، ولم يلم بي غم كهذا ، لأقرأ هذا التعويد وأفهم ما فيه ، فحلّ العوذة من ذراعه وفضّها فرأى مكتوباً فيها وبخط يد الإمام الحسن عليه السلام : يا قاسم أوصيك إذا رأيت أخي وعمك الإمام الحسين عليه السلام في فلاة كربلاء ، وقد ابتلي بأهل الشام الملعونين وأهل الكوفة الغادرين فانهض وضع رأسك عند أقدامه وابدل روحك رخيصة ، وكلّما منعك من القتال معه فبالغ في طلبك وازدد في إلحاحك ، فإن فداء الحسين عليه السلام مفتاح باب الشهادة وطريق لإدراك السعادة.

وحينما قرأ القاسم هذه الوصية لم يتمالك نفسه من شدة الفرح ، فنهض من مجلسه على الفور وتوجه نحو الإمام الحسين عليه السلام وهو يقبل تلك العوذة حال تسليمها ، وحينما نظر الإمام الحسين في تلك الرسالة ، زفر وتأوّه وانتحب بصوت عال ، ثم قال : يا بن الأخ ، إن هذه وصية أبيك إليك ، وأنت تريد العمل بها ، وإن لي وصية أخرى منه لك ، وإنني أريد العمل بها ، فتعال معي إلى هذه الخيمة ونعمل بتلك الوصية.

ثم أخذ بيد القاسم إلى الخيمة وطلب إخوته عوناً والعبّاس ، وقال لأُم القاسم : ألبسي القاسم ثيابه الجدد ، وقال لأخته زينب : اثيني بعبية أخي في الحال ، فأحضروه له ، ففتح رأس الصندوق ، وأخرج منه قباءً ثميناً للإمام الحسن عليه السلام وألبسه القاسم ، ووضع على رأسه عمامة الإمام الحسن عليه السلام بيديه المباركتين ، وأخذ بيد البنت المسماة للقاسم ، وقال : وإن هذه أمانة أبيك التي أوصاك بها ، ولقد كانت عندي حتى هذه الساعة سلوة ، ثم عقد البنت له ،

ووضع يدها بيد القاسم وخرج من الخيمة.

وكان القاسم ممسكاً بيد زوجته وبيكي في وجهها، ثم يومئ برأسه نحو الأرض، وإذا به يسمع صيحة من جيش عمر بن سعد: هل من مبارز؟ رفع القاسم يده عن يد زوجته وأراد الخروج من الخيمة، فأمسكت زوجته بذيله وقالت: يا قاسم، ما الذي يدور في خلدك؟ وإلى أين أنت عازم؟ قال القاسم: يا نور عيني، إنني عازم على الميدان، وهمتي محاربة الأعداء، فاتركي ذيلي فإن عرسنا قد تأجل إلى الآخرة.

فقالَت الزوجة: إنك تقول أن عرسنا قد تأجل للقيامة، فأين ألقاك في غد القيامة؟ وبأي علامة أعرفك؟ فقال: اطلبيني عند أبي وجدي، واعرفيني بهذا الكم المقطوع، ثم مد يده وقطع كُمَّه وخرج عن زوجته مسرعاً^(١).

ويمكننا أن نقارن بين رواية "الرّوضة" وبين رواية "المنتخب" بشكل دقيق، والرّواية كما في المنتخب: "ونقل أيضاً: لما آل أمر الحسين إلى القتال بكرِبلَاء وقاتل جميع أصحابه ووقعت التّوبة على أولاد أخيه جاء القاسم بن الحسن وقال: يا عمّ، الإجازة لأمضي إلى هؤلاء الكفرة، فقال له الحسين عليه السلام: يا بن الأخ، أنت من أخي علامة، وأريد أن تبقى لأتسلى بك، ولم يعطه إجازة للبراز،. حزين القلب، وأجاز الحسين إخوته للبراز ولم يجزه، فجلس القاسم متألماً، ووضع رأسه على رجليه، وذكر أن أباه قد ربط له عوذة في كتفه الأيمن، وقال له: إذا أصابك ألم وهمّ فعليك بحل العوذة وقراءتها وفهم

(١) راجع روضة الشهداء ص (٤٠٠).

معناها، واعمل بكل ما تراه مكتوباً فيها.

فقال القاسم لنفسه: مضى سنين علي، ولم يصبني من مثل هذا الألم، فحل العوذة وفضّها ونظر إلى كتابتها، وإذا فيها: يا ولدي قاسم، أوصيك إذا رأيت عمك الحسين عليه السلام في كربلاء وقد أحاطت به الأعداء، فلا تترك البراز والجهاد لأعداء رسول الله، ولا تبخل عليه بروحك، وكلّما نهاك عن البراز عاوده ليأذن لك في البراز لتحظى بالسعادة الأبدية.

فقام القاسم من ساعته، وأتى إلى الحسين عليه السلام وعرض ما كتب الحسن عليه السلام على عمه الحسين عليه السلام، فلما قرأ الحسين عليه السلام العوذة بكى بكاءً شديداً، ونادى بالويل والثبور، وتنفس الصعداء، وقال: يا بن الأخ، هذه الوصية لك من أبيك، وعندني وصية أخرى منه لك ولا بد من إنفاذها، فمسك الحسين عليه السلام على يد القاسم وأدخله الخيمة، وطلب عوناً وعباساً، وقال لأم القاسم: ليس للقاسم ثياب جدد؟

قالت: لا. فقال لأخته زينب: إيتيني بالصندوق، فأنته به ووضع بين يديه، ففتحه وأخرج منه قباء الحسن، وألبسه القاسم، ولفّ على رأسه عمامة الحسن، ومسك بيد ابنته التي كانت مسماة للقاسم، فعقد له عليها، وأفرد له خيمة، وأخذ بيد البنت ووضعها بيد القاسم وخرج عنهما.

فعاد القاسم ينظر إلى ابنة عمه ويبيكي، إلى أن سمع الأعداء يقولون: هل من مبارز؟ فرمى بيد زوجته وأراد الخروج، وهي تقول له: ما يخطر ببالك؟ وما الذي تريد أن تفعله؟ قال لها: أريد ملاقات الأعداء فإنهم يطلبون البراز،

وأني أريد ملاقاتهم، فلزمته ابنة عمه، فقال لها: خلي ذيلي، فإن عرسنا
أخرناه إلى الآخرة!!

فصاحت وناحت وأنت من قلب حزين ودموعها جارية على خديها، وهي
تقول: يا قاسم، أنت تقول عرسنا أخرناه إلى الآخرة، وفي القيامة بأي شيء
أعرفك؟ وفي أي مكان أراك؟ فمسك القاسم يده وضربها على رده وقطعها،
وقال: يا بنّة العم، إعرفيني بهذه الرذن المقطوعة، قال: فانفجع أهل البيت
بالبكاء لفعل القاسم وبكوا بكاءً شديداً، ونادوا بالويل والثبور^(١).

أما النص الذي ذكره النسابة ضامن بن شذقم الشدقمي الحسيني رحمته الله المتوفى
بعد الشيخ الطريحي رحمته الله بفترة قصيرة فهو التالي:

"قد حضر مع عمه الحسين عليه السلام وقعة الطّف، فاستأذنه في البراز، فقال له
عليه السلام: يا بن أخي أنت لي من أخي علامة، فأريد أن تبقى لأتسلى بك، فجلس
مهموماً مغموماً واضعاً رأسه بين ركبتيه، حزين القلب باكياً.

فذكر أن أباه عليه السلام قد عقد له عوذة في عضده الأيمن، وقد قال له: يا بني،
إذا أصابك ألم أو هم فحلّها وقرأها وافهم معناها واعمل بكل ما تراه مكتوباً
فيها، فعند ذلك حلّها وقرأها، فهذا ما وجدته مكتوباً فيها: يا ولدي يا قاسم
أوصيك بتقوى الله عز وجل، فإذا رأيت عمك الحسين عليه السلام بكر بلاء وقد أحاطته
الأعداء، فاطلب منه البراز ولا تترك الجهاد بين يديه على أعداء الله ورسوله
وأعدائه، ولا تبخل عليه بروحك، فإذا نهك فعاوده حتى يأذن لك لتحظى

(١) راجع منتخب الطريحي ص (٣٦٥)، عنه مدينة المعاجز للبحراني (٣/٣٦٦) المعجزة الرابعة
والثمانون برقم (٩٣١ / ٩٣)، وأسرار الشهادة.

بالسعادة الأبدية.

فنهض القاسم إلى عمه وعرض عليه العوذة، فتنفس الصعداء، وقال له: يا بني، هذه وصية لك من أبيك، وعندى وصية أخرى منه لك، فلا بد من إنفاذها، ثم نهض عليه السلام أخذاً بيده وييد أخويه عون والعباس ودخل بهم الخيمة، وأمر أخته زينب بإحضار الصندوق، وفتحه واستخرج منه قباء أخيه الحسن عليه السلام وعمامته، فألبسهما القاسم وعقد له على ابنته، وأدخله عليها وخرج عنهما. فجعل القاسم ينظر إليها وهو يبكي، فسمع القوم ينادون هل من مبارز؟ يا قوم ما من مبارز؟ إن القوم قد ذلّوا، فنهض مسرعاً يقول: إن هذا وقت البراز إلى القتال، ليس فيه أعراس ولا حطة عقال، وسنلتقي إن شاء الله الواحد المتعال^(١).

وبين الروايات الثلاثة تفاوتٌ في بعض المفردات، إلا أنّها واحدة في اتحاد المؤدّي، ويحتمل أن يكون الأصل للكتابين العربيّين هو الروضة الفارسي، واختلافهما باللفظ يقوّي احتمال ترجمة النص عنه أو عن مصدر فارسي آخر، كما يحتمل إعتقاد المصادر الثلاثة على مصدر رابع مفقود.

وقد حامت حول هذه الرواية إشكالات عدّة..

❖ لم تُنقل هذه الرواية عن كتاب قبل كتاب الطريحي رحمته الله والمقاتل المشهورة خالية منها، ممّا يشكك في صحّتها، ويمنع من الإعتقاد عليها.

الجواب: إنّ خلو المقاتل منها لا يؤدّي إلى كذبها بحال، ومن يستطيع إدعاء

(١) في تحفة اللباب في ذكر نسب السادة الأنجاب لضمامن بن شدقم الحسيني رحمته الله ص (٢١٧).

استقصاء جميع كتب المقاتل والبحث فيها، ونحن نعلم جزماً بوجود كتب كثيرة كانت متاحة عند من سبقنا وهي مفقودة الآن، ولا زالت آلاف المخطوطات ترزح على أرفف المكتبات الخاصة في شتى الأماكن، وقد قيل إن "عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود"، ومن الطبيعي أن ينفرد كل مصدر منها بنقل خاص، كما تتفاوت كتب الحديث بالنقل في ما بينها.

ويدري البصير أنّ أغلب كتب الحديث والتاريخ تنفرد ببعض الأخبار الخاصة فيها، بل وتنحصر بعض النصوص في كتاب منها لا توجد في غيرها، فلماذا لا تكون رواية زفاف القاسم عليه السلام من هذا القبيل؟ ولماذا يتسارع البعض للطعن فيها دون سائر أخبار الأحاد الأخرى!

هذا بعد التسليم بجلالة الشيخ الطريحي رحمته الله وتنزيهه عن الإختلاق والجعل، فمكائنه تقوي احتمال حيازته مصادر خاصة لم تصل إلينا، كما نقل السيد ابن طاووس رحمته الله في الإقبال عن كتب مفقودة لدينا اليوم، كالمُرشد وكتاب النبوة للصدوق والأمالى للشيباني والرسالة العزية للمفيد والتعريف للصفواني، وبعض هذه المصادر كان موجوداً قبل ثلاثة قرون عند العلامة السيد هاشم البحراني رحمته الله ونقل عنها في كتابه مدينة المعاجز.. وقد عرفت أنّ الشيخ الطريحي رحمته الله لم ينفرد برواية زفاف القاسم بن الحسن عليه السلام، وقد رواها علماً آخران.

❖ وأشكل عليها بضعفها، وقيل أنّها موهونة بالإرسال.

الجواب: معلوم أنّ ضعف سند الرواية وإرسالها لا يعني كذبها بحال، وكتبنا المعتبرة مملوءة بالمراسيل، وهذا سيال على كل ما يرويه الشيخ المفيد رحمته الله في

الإرشاد وابن طاووس رحمهما الله في اللهوف ، فكلّها مراسيل ، وسننن قريباً الضابطة في قبول الروايات والأخبار ، وستعرف أنّ الرواية التاريخية لا يُنظر فيها إلى صحة السند إن خلت من الخلل في مضمونها ، بخلاف روايات الأحكام الإلزامية .

❖ زعم وضعها ودسّها في المنتخب ..

الجواب : نعم ، ادّعى السيّد المقرّم رحمته الله في مقتله أنّ رواية العرس مدسوسة في كتاب المنتخب وموضوعة عليه ! فقال : "والشيخ فخر الدين الطريحي عظيم القدر ، جليل في العلم ، فلا يمكن لأحد أن يتصوّر في حقه هذه الخرافة ، فثبوتها في كتابه المنتخب مدسوسة في الكتاب ، وسيحاكم الطريحي واضعها في كتابه" ^(١) .

وزاد الشيخ ذبيح الله المحلاتي رحمته الله : " وما جعلوه سنداً لهم في الألسنة من أن الطريحي في منتخبه ينقل القصة عن غيره ، فإنه - أي الطريحي - يقول : إن هذه القضية لم نظفر بها في الكتب المعتمدة والروايات المعتمدة ، ولا شك أن هذه العبارة لها دلالة صريحة في أن الطريحي نفسه لم يعتمد على ذلك النقل " ^(٢) .

وهي دعوى فارغة من البرهان ، مستندة إلى التخرّص المحض ، خصوصاً وإنّ المولى الكاشفي رحمته الله كان قد نقل الرواية في روضته قبل الطريحي رحمته الله بما يقرب من المئتين عاماً ، ويحتمل أن يكون الطريحي رحمته الله قد نقلها من كتاب ترجم رواية العرس عن الروضة ، كما يحتمل أنّه نقلها من كتاب آخر معتبر عنده ، ونقلها ابن شدقم رحمته الله بعده بمدة يسيرة ، ولو احتملنا جدلاً دسّها فيه فما يضيرنا مع نقلها في

(١) راجع مقتل الحسين للمحقّق السيّد عبد الرزّاق المقرّم ص (٢٦٤) هامش (٤) .

(٢) راجع فرسان الهيجاء (٣١/٢) .

مصدر أقدم من المنتخب وورودها في مصدر آخر.
وأما دعوى الشيخ المحلاتي رحمته فإنها غريبة جداً، وقد نقلنا نص رواية
المنتخب وليس فيها تلك العبائر التي نسبها إليه، والله أعلم.

❖ وأشكل بأنها لم تُنقل قبل كتاب روضة الشهداء ولا حتى إجمالاً..

الجواب : هذا إشكال مبنيّ على مقدّمة مخدوشة، وهي أنّ تفاصيل حادثة
كربلاء وصلت إلينا كاملة ولم يفتنا منها شيء، والحال أنّنا إذا ضمّمنا مختلف
المصادر إلى بعضها قد ننتهي إلى صورة متكاملة بعد سدّ ثغورها بإيصال ما تقطّع
من سلسلتها، ومع هذا فيمكن أن نعثر على مصدر ينفرد ببعض التفاصيل التي لم
تُذكر في المصادر التي بأيدينا، ومن غير الدقّة أن يُقال "لم يرد" أو "لم يُنقل"، إذ
لا يمكن لباحث مهما بلغ توسّعه أن يدّعي الإطلاع على جميع المصادر والكتب
بتفاصيلها، وبالتالي فإنّه لا يمكنه رمي ما رواه غيره بالكذب والبطلان.
وهذا يقوّي الإحتمال الوارد بكون الكاشفي رحمته قد عثر على بعض الكتب
التي دوّنت الرواية وقام بالنقل عنها، ولا يمكن الجزم بعدمه.

❖ وأشكل بأنّ ناقل الرواية "الكاشفي رحمته" مشكوك في مذهبه..

الجواب : قد قدّمنا الكلام في هذه النقطة، وذكرنا أقوال كبار العلماء فيه
وجزمهم بتشيّعه، وهي دعوى لا تُسقط الكتاب على كلّ حال عن الإعتبار.

❖ وأشكل بعدم الإنسجام بين أجواء العرس والأفراح وبين أجواء الأحداث
الدّامية ليوم عاشوراء وترادف المصائب والمحن على الإمام الحسين عليه السلام.

الجواب : القصة التي نقلتها المصادر لا تشتمل على أكثر من تنفيذ الإمام الحسين عليه السلام وصية أخيه الإمام الحسن عليه السلام ، وليس فيها شيء من أجواء الفرح التي قد تُتوهم ، ويمكن الإستغراب فيما إذا لم تُنفذ وصية الإمام عليه السلام مع القدرة عليها وليس العكس ، إذ لم يتجاوز العرس إلباسه عليه السلام لباس أبيه عليه السلام والعقد بينه وبين بنت المسماة له ووضع يده في يدها والخروج من الخيمة ، ومن الواضح أنّ كلّ ذلك لا يتجاوز الدقائق ، مع مراعاة مقتضى الحرب .

وقد درج أهل العزاء على استعمال تعبير العرس في خصوص مصيبة القاسم عليه السلام في إشارة إلى إحدى الجهات المهيجة للحزن فشاع هذا المصطلح ، وإلا فالرواية تصرّح بأنّه قد أُخّر إلى الآخرة ، وهو تصريح أوضح بنفي حصول العرس المتعارف في يوم الطّف ، وأن الذي جرى كان مجرد عقد زواج .

❖ وأشكل بكونه عليه السلام لم يبلغ الحلم فكيف تصح نسبة الزواج إليه ؟

الجواب : وما المانع في ذلك؟ وقد اتفق الفقهاء على صحّة تزويج الصبي والصبيبة إذا لم يصلا إلى سن البلوغ ، وأن الصبيبة تكون زوجة للمتزوج بها سواء كان الزوج بالغاً أم لا ، وتترتب عليهما أحكام الزوجية كاملة ، وللزوج كلّ الإستمتاع فيما عدا الوطأ ، وعليه فإنّ هذا الإشكال مدفوع فقهيّاً .

وأما جواب الإشكال الوارد في بعض الكتب الفقهيّة من أنه لا ولاية للموصي في تزويج الصبي غير البالغ حتى مع نص الموصي بذلك على الأشهر ، فهي مسألة خلافيّة استوى طرفا الخلاف فيها ، وذهب إلى جوازها جمعٌ من الفقهاء ، منهم الآيتين الشيخ محمد حسن النجفي رحمته الله في الجواهر والسيد الخوئي رحمته الله .

❖ وأشكل بكون بنات الإمام الحسين عليه السلام ثلاثة، وهن " فاطمة " وكانت تحت حُباله الحسن المثنى و" سكينة " ولم تكن في حدّ الزواج و" رقية " وكانت صغيرة.

وقال الشيخ محمد تقي التستري رحمته الله: وما اشتهر من تزوجه فقصة، وليس للحسين عليه السلام إلاّ فاطمة واحدة، وقد زوّجها قبل من أخيه الحسن المثنى ^(١).
وقال الشيخ ذبيح الله المحلاتي رحمته الله: ولا شك أن فاطمة بنت الحسين كانت زوجة للحسن المثنى، وكان زوجها حاضراً في كربلاء، فكيف يمكن أن يكون هناك أساس وأصل لهذا النقل؟! ولم يكن للإمام الحسين عليه السلام في كربلاء بنت أخرى باسم فاطمة ^(٢).

الجواب: الإشكال مبنيّ على مقدّمة مخدوشة، وهي عدم صحة تزويج الصّغيرة، ويقابل هذا الرّأي عشرات الأدلة الفقهية التي تميز ذلك!
مضافاً إلى وقوع الخلاف بين الأعلام في عدد بنات الإمام الحسين عليه السلام، وأمّا الشيخ المفيد رحمته الله فيقول: " وسكينة بنت الحسين، وأمها الرباب بنت امرئ القيس بن عدي، كلبية معدية، وهي أم عبد الله بن الحسين عليه السلام، وفاطمة بنت الحسين عليه السلام وأمها أم إسحاق بنت طلحة بن عبد الله، تيمية ^(٣)."

وأما ابن أبي الثلج البغدادي رحمته الله المتوفى سنة ٣٢٥ هـ فقد حددهن في كتابه

(١) راجع قاموس الرجال (٤٦٦/٨).

(٢) راجع فرسان الهيجاء (٣١/٢).

(٣) راجع بحار الأنوار (٣٢٩/٤٥) عن الإرشاد للشيخ المفيد رحمته الله.

تاريخ الأئمة في ثلاثة: زينب، وسكينة، وفاطمة^(١). وأيده ابن شهر آشوب رحمته في المناقب، وقال الطبرسي رحمته في تاج المواليد أنهن اثنتان: فاطمة وسكينة، ومثله العلامة الحلبي رحمته في المستجد من الإرشاد، ونقل الأربلي رحمته في كشف الغمة أنه كان للحسين عليه السلام أربع بنات.

والإختلاف مطردٌ كذلك في عدد أولاد بعض الأئمة عليهم السلام، واختلف في عدد أولاد الإمام السجاد عليه السلام، فابن الحشاش رحمته قال أنّ له ثمانية أولاد وليس له بنات، ونقل الأربلي رحمته قولاً بأنه كان له تسعة أولاد ذكور ولم يكن له أنثى، وقال ابن شهر آشوب رحمته أنهم اثنا عشر، ثم نقل الاختلاف في بناته بين قائل بعدم وجود بنات له وقائل بوجود بنت واحدة اسمها خديجة، وقائل بوجود ثلاث بنات: فاطمة وعليّة وأم كلثوم، ونقل الشيخ المفيد رحمته وجود قول بأن عدد أولاده أربعة عشر، عشرة منهم ذكور، والإناث أربعة، ونقل قولاً آخر بأن عدد أولاده خمسة عشر ولداً^(٢).

والتفاوت بين المصادر في عدد أولاد الإمام الحسين عليه السلام يتيح مساحة أكبر من احتمالات إمكان وجود بنت مسمّاة باسمه عليه السلام بينهنّ، وليس بين أيدينا ما ينفي وجود من بلغت سن الزواج بينهنّ غير فاطمة بنت الحسين عليه السلام، وظاهر بعض الأخبار خلاف ذلك.. ونقل السيّد المقرم رحمته أنّ الحسن بن الحسن بن أمير المؤمنين عليه السلام أتى عمّه الحسين عليه السلام يخطب إحدى ابنتيه فاطمة وسكينة، فقال

(١) مجموعة نفيسة ص (١٨).

(٢) راجع البحار ج ٤٦ ص ١٥٥.

له الإمام عليه السلام : أختار لك فاطمة ، فهي أكثرهما شبيها بأمي فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، أما في الدين فتقوم الليل كله وتصوم النهار ، وفي الجمال تشبه الحور العين ، وأما سكينه فغالبا عليها الإستغراق مع الله تعالى فلا تصلح لرجل^(١) . وهذا يعني أن سكينه عليها السلام كانت في سنّ الزواج قبل واقعة الطفّ ، وإلا لما خطبها الحسن من أبيها ، ولو لم تكن في سنّ الزواج لذكر له الإمام الحسين عليه السلام ذلك ، فيرتفع بذلك المحذور في زواج القاسم عليه السلام بسكينه عليها السلام في كربلاء من هذه الجهة ، إلا أن بعض علماء النسب والتاريخ ذكروا أنها كانت زوجة لعبد الله الأكبر ابن الإمام الحسن عليه السلام أخ القاسم^(٢) .

وليُعلم أنني لستُ في صدد إثبات زواجه بأحدهنّ تحديداً ، فرواية الزّفاف لم تذكر اسم البنت المسماة للقاسم حتى يوهنها كلّ ذلك ، فربّما زوّجها أصغر بناته مثلاً ، وقد أتاح الاختلاف في عددهنّ فرصة كافية لاحتمال وقوع القصة .

❖ وقد يُقال أخيراً : ما هو الدّاعي أو الجدوى لتزويج الإمام الحسين عليه السلام ابنته المسماة بابن أخيه القاسم عليه السلام مع علمه الحتمي بشهادته ..

الجواب : في الردّ على هذا السؤال وجوهٌ ..

. منها : أداء وصيّة أخيه الإمام الحسن عليه السلام وإدراكها بالقدر الممكن ، ولو كان في ذلك الظرف العصيب ، وهذا وجهٌ ظاهر حتّى في نفس الرواية .

(١) راجع السيّد سكينه ابنة الإمام الحسين عليه السلام ص (٤٣) عن إسعاف الرّاغبين للصبان الوارد بهامش نور الأبصار ص (٢٠٢) .

(٢) راجع السيّد سكينه ابنة الإمام الشهيد أبي عبد الله الحسين عليه السلام ص (١١٠) .

. ومنها: أنه عليه السلام يعلمنا كيف نستثمر الحياة ما دمننا فيها، عبر منطق الدين الذي يأمر بغرس فسيل النبت في الأرض وإن صاحت القيامة، فالزواج أمر محبوب في نفسه وإن كان في ظرف عصيب، والمستحب مستحبٌ في كلِّ حال.

. ومنها: أنه عليه السلام ربّما أراد أن يسمو بابن أخيه إلى عالي درجات الشهادة، فإذا كانت صلاة المتزوج مضاعفة فلا يبعد أن تكون سائر عباداته كذلك، وفي توجّع القاسم عليه السلام بترك زوجته وقصده حومة الميدان ما يرفع الله تعالى به درجته فوق درجته إن لم يكن متزوجاً، وقد اختار الله تعالى له هذا المقام.

. ومنها: أراد الإمام عليه السلام لإبنته أن تكون له زوجة في الجنّة، وتقترب بسيد من سادات شهداء أهل البيت عليه السلام، فتحظى برتبته في الآخرة وتكون في منزلته. ووجوه أخرى وأخرى.. تظهر عند التأمل، وبالتالي فإنّ قصة الزّفاف في دائرة الإمكان حتماً، وحجج القاطعين بالنفي ضعيفة واهية، ولا شكّ من جواز قراءة رواية الزّفاف في المجالس بل ترقى عدّة من الفقهاء إلى الإفتاء باستجابته!

أمّا آية الله العظمى السيد محسن الحكيم رحمه الله فإنه استفتني في إدخال زفة القاسم عليه السلام في المجالس الحسينية ومعها الشموع والحناء والخضرة والغرض إشعال الحزن بالصياح والعيول واستدرار الدموع، فهل في ذلك مانع في نظره؟ فأجاب بما نصّه: بسم الله الرحمن الرحيم، وله الحمد، لا مانع من ذلك، وفيه تذكرة للمصاب الأليم، والخطب الجسيم، فإنّا لله وإنا إليه راجعون^(١).

(١) صدرت الفتوى في ٢٤ شعبان ١٣٨٧ هـ، راجع فتاوى علماء الدين حول الشعائر ص (١٨٣).

فلا مجال يبقى للشبهة المنسوبة للشيخ المطهري رحمته حينئذ، وقد بالغت "الملحمة الحسينية" في نقد والأخبار المنقولة على المنابر الحسينية فأصابت في بعضها وجانب الصواب في بعضها الآخر، واعتمدت في أكثر نقلها على الشيخ النوري رحمته وأثنت عليه غاية الثناء، لكن حتى هذا الأخير لم يسلم من طعنها ونقدها أيضاً!

تقول الملحمة الحسينية أيضاً :

"المرحوم الميرزا حسين النوري أعلى الله مقامه وهو أستاذ المرحوم الحاج الشيخ عباس القمي والمرحوم الحاج الشيخ محمد باقر البيرجندي والمرحوم الشيخ علي أكبر النهاوندي، والحاج النور هذا محدث نادر ومتبحر في فن الخطابة والحديث، وصاحب حافظه ذهنية قوية جداً، ورجل حماسي، يملأ قلبه الإيمان، وله ذوق رفيع، لكن بعض كتبه كما يقال لم تكن تناسب شخصيته ولهذا تعرض إلى اللوم، غير أن كتبه بوجه الإجمال جيدة، وخاصة كتابه المعروف باسم اللؤلؤ والمرجان وهو من الكتب الجيدة جداً بالرغم من حجمه الصغير"^(١).

ويعني ببعض كتبه رحمته التي لا تناسب شخصيته كتاب فصل الخطاب الذي يتناول فيه موضوع تحريف القرآن الكريم، والذي اتخذ البعض باباً للطعن على المذهب، وهو عالمٌ جليلٌ، لكنّه سرعان ما سلّطت عليه سكاكين النقد في نفس الكتاب: "من المؤسف هنا أيضاً القول بأن الحاج نوري نفسه ينقل لنا رواية

(١) راجع الملحمة الحسينية ص (١٢).

محرّفة ومختلفة حول الإمام زين العابدين عليه السلام ، وهي الرواية التي تقول بأنه لما لم يبق للحسين عليه السلام من أنصار قام الإمام بزيارة خيمة الإمام زين العابدين عليه السلام بغرض الوداع ، فقال له زين العابدين عليه السلام : يا أبا العزير !! إلى أين وصل بك المطاف مع هؤلاء ؟

أي إن الإمام زين العابدين عليه السلام كان يجهل حتى تلك اللحظة ما جرى لأبيه ، فقال له : إنها الحرب يا بني !!

فقال له زين العابدين : وماذا حلّ بحبيب بن مظاهر ؟ قال : قُتل ، وزهير بن القين ؟ قال قُتل ، وبرير بن خضير ؟ قال : قُتل ، وأين القاسم بن الحسن ؟ قال : قُتل ، وأين أخي علي الأكبر ؟ قال قُتل ، وأين عمي أبو الفضل العباس ؟ قال قُتل .

إن هذه الرواية تحريف وكذب وتزوير !
فالإمام زين العابدين عليه السلام لم يكن إلى هذا الحد مريضاً وفاقداً للوعي والعياذ بالله ، حتى يكون غير قادر على متابعة أخبار المعركة !!
إن التاريخ يكتب لنا بأنه عليه السلام وهو في تلك الحال قد ذهب لعمته زينب وقال لها : عمّاه أعطيني عصاي وسيفي لأذهب وأقاتل دون الحسين ، وأن الذي نقل هذا القول هو شخص الإمام زين العابدين عليه السلام نفسه ^(١) .

(١) راجع الملحمة الحسينية ص (٤٥).

إرسال أخبار الطف

من الحقائق المهمة المسلمة أنّ وقائع عاشوراء وأحداث الطف المشهورة لم تصل إلينا مسندة بل وصلت مرسلة، وحتى تلك المروية في الكتب المعتمدة عن طرق الشيخ المفيد رحمته والسيد ابن طاووس رحمته وأمثالهما فإنها مرسلة، وتنقل المصادر الأخبار عن ابن جرير الطبري عن أبي مخنف، وهذا الأخير لم يحضر الواقعة أصلاً، ويعتمد في النقل على هلال بن نافع وحמיד بن مسلم وهلال بن معاوية وغيرهم ممن شهد الحرب في الجيش المقابل للإمام الحسين عليه السلام.

ولا يمكننا من الناحية العلمية أن نفرّق أو نرجّح بين مراسيل الشيخ المفيد رحمته في الإرشاد وبين منقولات المرحوم المجلسي رحمته في بحار الأنوار وغيره من المجموع، سواء كان النقل مرسلًا أو عن بعض الثقة أو بعض أصحابنا أو عن بعض الكتب القديمة أو بعض الكتب المعتمدة وشبه ذلك، كما أنه لا يمكننا التفريق بين منقولات كتب المتقدمين وبين منقولات كتب المتأخرين، مثل الفقيه العلامة الدربندي رحمته، أو الفاضل الأديب الشيخ حسن بن الشيخ علي السعدي رحمته ^(١).

وقد روى السعدي رحمته مراسيل عن رواة مشايخ أهل الكوفة وصاغ ألفاظاً لها من شعره، فما الذي يقصّر بها عن أن تكون في مستوى مراسيل منتخب

(١) وقد تقدّم الكلام في ترجمة المرحوم الدربندي رحمته، أمّا الشيخ حسن السعدي رحمته فهو من كبار العلماء الأدباء، وله شعر كثير في مدائح أعيان عصره ومراثيمهم، ومراجعات أدبية خالدة مع السيد حيدر الحلّي، وقد أكثر من رثاء سيد الشهداء عليه السلام لكنّ شعره نادر الوجود، وله كتاب في مقتل الحسين عليه السلام وقد أخفاه في حياته تحرجاً، لأن بعض ما فيه لم يروه بلفظه، وتورّع عن النقل بالمعنى وقد صاغه بشعره وأدبه. (وقد تقدّمت ترجمته بنحو آخر)

الطريحي والدمعة الساكبة! وبأي وجه نسقطها عن الإعتبار مع العلم بوثاقه ناقلها وراويها وعلو شأنه ومقامه، ومن يستطيع الجزم بكذب هذه المراسيل أو تلك!.
نعم.. بعضها غير معلوم الصدق، وهذا يشمل كل الأخبار بلا استثناء،
وشتان ما بين معلوم الكذب وبين غير معلوم الصدق، فلو التزم الخطباء بنقل الخبر
المعلوم الصدق بالطرق الظاهرية المتبعة في الأصول والحديث لانسد باب النقل
وبطل الإحتجاج بأقوال كل المؤرخين، وذلك ما لا يلتزم به عالم ولا جاهل.
ولدى النظر في كتب الأخبار نجد أن ما درج عليه العلماء والخطباء في النقل
ناشئ من فحوى الروايات الواردة عنهم عليهم السلام.. إذ روي أن سفيان بن السمط قال
للإمام الصادق عليه السلام: جعلت فداك، إن الرجل ليأتينا من قبلك فيخبرنا عنك
بالعظيم من الأمر، فيضيق بذلك صدورنا حتى نكذبه.

فقال الإمام له: أليس عني يحدثكم؟ فأجاب سفيان: بلى. فقال الإمام:
فيقول للليل أنه نهار والنهار أنه ليل؟ فأجاب سفيان: لا.. فقال الإمام: رده إلينا،
فإنك إن كذبت فإنما تكذبنا^(١).

وروي في قرب الإسناد عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: أما والله إن
أحب أصحابي إليّ أروعهم وأفقههم وأكتمهم لحديثنا، وإن أسوأهم عندي
حالا وأمقتهم إليّ الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروي عنّا فلم يعقله ولم
يقبله قلبه اشمأز منه وجحده وكفر بمن دان به، وهو لا يدري لعل الحديث من

(١) راجع بحار الأنوار (٢/١٨٧).

عندنا خرج ، وإلينا أسند فيكون بذلك خارجا من ولايتنا^(١).

- (١) راجع بحار الأنوار (١٨٦/٢). وقد روي عن أهل البيت عليهم السلام الكثير من هذه الروايات التي تحذر من المسارعة إلى تكذيب الخبر المروي عنهم عليهم السلام ، فقد روي في بحار الأنوار (١٨٦/٢) عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام : لا تكذبوا بحديث أتاكم به أحد ، فإنكم لا تدرون لعله من الحق. وروي في بحار الأنوار (١٨٦/٢) عن علي المسناني عن أبي الحسين عليه السلام : لا تقل لما بلغك عنا ، أو نسب إلينا : هذا باطل ، وإن كنت تعرف خلافه.
- وروي في بحار الأنوار (١٨٦/٢) عن بصائر الدرجات بالإسناد إلى أبي بصير عن أبي جعفر أو عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لا تكذبوا بحديث أتاكم أحد ، فإنكم لا تدرون لعله من الحق فتكذبوا الله فوق عرشه.
- وروي في بحار الأنوار (١٨٦/٢) عن قرب الإسناد بالإسناد إلى علي السائي عن أبي الحسن عليه السلام أنه كتب إليه في رسالة : ولا تقل لما بلغك عنا أو نسب إلينا هذا باطل ، وإن كنت تعرف خلافه ، فإنك لا تدري لم قلنا وعلى أي وجه وصفة.
- وروي في بحار الأنوار (١٨٦/٢) عن قرب الإسناد إلى أبي يعقوب إسحاق بن عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الله تبارك وتعالى حصن عباده بآيتين من كتابه ، أن لا يقولوا حتى يعلموا ، ولا يردوا ما لم يعلموا ، إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وقال : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾.
- وروي في بحار الأنوار (١٨٨/٢) عن علل الشرائع بالإسناد إلى أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام قال : لا تكذبوا بحديث أتاكم مرجئي ولا قدري ولا خارجي نسبة إلينا ، فإنكم لا تدرون لعله شيء من الحق فتكذبوا الله عز وجل فوق عرشه.
- وروي في بحار الأنوار (١٨٨/٢) عن معاني الأخبار بالإسناد إلى عبد الغفار الجازي قال : حدثني من سأله يعني الصادق عليه السلام : هل يكون كفر لا يبلغ الشرك ؟ قال : إن الكفر هو الشرك ، ثم قام فدخل المسجد ، فالتفت إليّ وقال : نعم ، الرجل يحمل الحديث إلى صاحبه فلا يعرفه فيرده عليه فهي نعمة كفرها ولم يبلغ الشرك.

الضابطة في نقل الأخبار

يحاول البعض النيل من قوّة مجالس الإمام الحسين عليه السلام بشتى الطرق، ومن المؤسف أن يتمادى آخرون فيرمون الخطباء بالكذب، فهذه تهمة سيّالة على الخطباء والعلماء جميعاً، لسكوتهم وعدم نهيهم عن المنكر، فعدم إنكارهم دليل على صدق تلك الأخبار عندهم.

ولابدّ من تحقيق الضابطة الشرعية في نقل الأحاديث والأخبار بوضوح تام حسب الموازين الفقهية الدقيقة بشكل لا يقبل الشك، ولا بدّ أولاً من تعريف الكذب المحرّم، إذ لا إشكال في أنّ الكذب في المجالس لا يكون إلا بقراءة الخطيب كلاماً من نفسه، صاغ ألفاظه أو حرّف معناه أو نسبه إلى غير قائله في حين لم يرد في رواية مسندة أو مرسلة ولا تُنقل في كتاب معتبر، ومثله أن ينقل بقراءته كلاماً زوره الغير وافتعله مع علمه أو ظنّه بذلك.

والحال أنّه لم يُعهد في الخطباء الحسينيين تزوير الأخبار ولا نقل الكذب، فهم ينقلون عن الرواة والمحدثين الموثوق بهم أو غير المعلوم عندهم كذب حديثهم، وعهدة مثل هذه الأحاديث على راويها وليس على ناقل روايته، فلا يُحكم بكذب الخطيب حينئذٍ وإن كان المقروء كذباً واقعاً، فهو لا ينقل معلوم الكذب.

هذا.. والخطباء يرقون المنابر الحسينية ويتلون مختلف تلك الأخبار بكرة وعشياً

وروي في بحار الأنوار (١٨٩/٢) عن الأربعمائة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: إذا سمعتم من حديثنا ما لا تعرفون فردّوه إلينا، وقفوا عنده، وسلّموا حتى يتبيّن لكم الحق، ولا تكونوا مذاييع عجلى.

من غير نكير أحدٍ من العلماء قديماً وحديثاً، ولو أنّ العلماء كانوا يرون ذلك كذباً لأنكر عليهم، لكنهم لم ينكروه لأنّه ليس بكذبٍ بحسب القواعد الشرعيّة. ومن الأهميّة بمكان أن يُعلم أنّ مادّة السيرة الحسينيّة لا تحتوي أحكاماً إلزامية حتّى يُنظر في سندها ويشخّص أنّه من قسم الصحيح أو الموثق أو الحسن، كما أنّها لا تحتوى حكماً غير إلزامي ليُصار إلى تحكيم أخبار التسامح في أدلة السنن فيها، وإنّما هي أخبار من سنخ الرخص وإن لم تكن رخصاً حقيقة.

فالقصاص والمواظ والمواظ والفضائل والمصائب وأخبار الوقائع من سنخ واحد، وهي مختلفة عن أخبار الأحكام الشرعيّة ولا يجري عليها حكمها، وبالتالي فإنّه لا يلزم التصحيح أو التسامح فيها ولا ينبغي النظر في سندها، فيمكن نقلها إذا أمّن الضرر منها ووافقت فطرة العقل ولم تخالفها ولم تصطدم بعقيدة أو مسلّمة.

إلا أنّ بعض علمائنا أجرى التسامح في هذه الأخبار، فنسب الشهيد الأول رحمته في الذكرى إلى أهل العلم التسامح في أخبار الفضائل^(١)، كما أنّ الشهيد الثاني رحمته نسب في شرح الدرّاية إلى الأكثر جواز العمل بالخبر الضعيف في القصاص والمواظ والفضائل، واستحسن ذلك، ما لم يبلغ الخبر في الضّعف حدّ الوضع والإختلاق^(٢).

وقال الشّيخ الأعظم الأنصاري رحمته في التنبية الرابع من رسالته في مسألة التسامح بعد نقل العبارة المتقدمة عن الشهيد الثاني: " المراد بالعمل بالخبر

(١) راجع ذكرى الشيعة ص (٦٨).

(٢) راجع الرعاية ص (٩٤).

الضعيف في القصص والمواظ هو نقلها واستماعها وضبطها في القلب وترتيب الآثار عليها، عدا ما يتعلق بالواجب والحرام.

والحاصل أن العمل بكل شيء على حسب ذلك الشيء، وهذا أمر وجداني لا يُنكر، ويدخل في ذلك حكاية فضائل أهل البيت ومصائبهم.

ويدخل في العمل، أي العمل بالخبر الضعيف في الفضائل والمصائب وشبهها الإخبار بوقوعها، أي الفضائل والمصائب من دون نسبة إلى الحكاية على حد الاجتهاد بالأمر المذكورة الواردة بالطرق المعتمدة، كأن يقال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول كذا، ويبيكي كذا، ونزل على مولانا سيد الشهداء كذا وكذا، ولا يجوز ذلك في الأخبار الكاذبة، وإن كان يجوز حكايتها فإن حكاية الخبر الكاذب ليست كذباً، مع أنه لا يبعد عدم الجواز إلا مع بيان كونها كاذبة.

ثم إن الدليل على جواز ما ذكرنا من طريق العقل، حسن العمل بهذه الأخبار مع أمن المضرة فيها على تقدير الكذب، وأما من طريق النقل فرواية ابن طاووس، والنبوي، مضافاً إلى إجماع الذكرى المعتضد بحكاية ذلك عن الأكثر^(١).

(١) راجع الرسائل الفقهية للشيخ الأنصاري ص (١٥٨).

ومراده من رواية ابن طاووس ما رواه في الإقبال ص (٦٢٧) عن الإمام الصادق عليه السلام قال: من بلغه شيء من الخير فعمل به، كان له أجر ذلك، وإن لم يكن الأمر كما بلغه. ومراده بالنبوي ما نسبته الشهيد الثاني في الرعاية ص (٩٤) إلى النبي صلى الله عليه وآله من طريق الفريقين من أنه صلى الله عليه وآله قال: من بلغه عن الله فضيلة فأخذها وعمل بما فيها إيماناً بالله، ورجاء ثوابه، أعطاه الله ذلك، وإن لم يكن كذلك.

وتقدّم أنّ الإخبار مع النسبة إلى الرواية ليس كذباً، وإذا كان الخبر كذباً فهو من الراوي وليس من الناقل، وحكاية الخبر الكاذب ليست بكذب، بل نقل الكفر ليس بكفر، وإتّما يُشكلُ فيما إذا أُخبر بوقوع حادث بلا نسبة إلى روايه، إلاّ إذا اعتقد المخبر بوقوع الحادث ولم يعدّه كذباً، ورُوِيَ في الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام: إذا حدّثتم بحديث فأسندوه إلى الذي حدّثكم، فإن كان حقاً فلُكم، وإن كان كذباً فعليّه^(١).

وقال الفقيه الشيخ زين العابدين المازندراني رحمه الله في كتابه ذخيرة المعاد: "هل يجوز في الفضائل والمصائب القراءة بلسان الحال ومقتضى شاهد الحال، أم لا؟ وعلى تقدير الجواز، هل يجب الإشعار والإعلام بذلك أم لا؟ وإذا نقل أحدٌ حكايات الفضائل من كتاب غير معتبر أو لسان بعض القراء، هل يجوز ذلك أم لا؟ وهل على القاريء إسناده أم لا؟

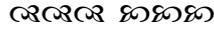
الجواب: ذكر المصائب بلسان الحال جائز إذا كان مناسباً للإمام عليه السلام، ولا بدّ من الإشعار والإعلام بكونه لسان الحال، وإذا نقل من كتاب معتبر أو غير معتبر

→ ومراده من إجماع الذكرى قول الشهيد فيها ص (٦٨): أخبار الفضائل يتسامح بها عند أهل العلم.

والمراد بالاعتضاد بالحكاية عن الأكثر، مما نقلناه عن الشهيد الثاني من أن الأكثر جوّزوا العمل بالخبر الضعيف في نحو القصص والمواعظ وفضائل الأعمال، لا في صفات الله وأحكام الحرام والحلال، وهو حسن ما لم يبلغ حدّ الوضع والاختلاق. كما في الرعاية ص (٩٤).

(١) راجع الكافي (٥٢/١).

لابدّ من الإسناد إلى الناقل، ولا حاجة إلى تعيين الكتاب المنقول عنه^(١).
ومن هذا المنطلق فإنه يُعلم الوجه فيما درج عليه علماؤنا وخطباؤنا قديماً
وحديثاً من نقل الوقائع التاريخية مرسلة، إذ لا حاجة لتنقيح إسنادها أو النظر
فيها، فإذا نقل مؤرخ ما واقعة ما فلا يقال إنها مكذوبة، لأنه لم يُسندها معنعة
إلى من شهد الواقعة، كما أنه إذا نقل ناقل الواقعة نفسها من ذلك الكتاب فلا يعدّ
من ناقلي الكذب لمجرد نقله الخبر غير المسند.



(١) راجع كتاب ذخيرة المعاد ص (٣٦٨ - ٣٦٩).

